٣٦٠ فائدة على مدار العام الهجري

فوائد شهر ربيع الآخر



كتبه الفقير إلى عفو ربه

أ. د. خالد بن عبد الغفار آل عبد الرحمن

الجزء الرابع

الطبعة الأولى

١٤٤٥هـ



ح خالد عبد الغفار عبد الله آل عبد الرحمن ، ١٤٤٥هـ

عبد الرحمن ، أ.د. خالد عبد الغفارعبد الله
فوائد شهر ربيع الآخر الجزء الرابع من سلسلة كتاب ٣٦٠ فائدة علي
مدار العام الهجري./ أ.د. خالد عبد الغفار عبد الله آل عبد الرحمن
ط ١.- الرياض ، ١٤٤٥هـ
١٣٥ ص ! ١٧ x ٢٤ سم.- (٣٦٠ فائدة على مدار العام الهجري)

رقم الإيداع : ٢٠٠٩٩ / ١٤٤٥
ردمك :٣-٠٣٨٠-٠٥-٦٠٣-٩٧٨




بسم الله الرحمن الرحيم



إهــداء

إلى زوجتي وأبنائي الأوفياء الذين كان لهم الفضل بعد الله عز وجل في تشجيعي ودعمي المتواصل لإعداد هذه السلسلة من الفوائد التي تُحفّز المسلم والمسلمة للعمل الصالح واغتنام أيام العمر فيما ينفع ويرضي الله ﷻ.





مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين. فبين يديك أخي القاري الكريم الجزء الرابع من كتاب " ٣٦٠ فائدة " على مدار العام الهجري، وهو كتاب يضم فوائد ودروسًا تُحفِّز المسلم والمسلمة على العمل الصالح واغتنام أيام العمر فيما يَنفع ويُرضي اللهَ عزَّ وجلَّ . تمَّ تقسيمها على أيام السنة الهجرية؛ بحيث يستطيع القارئ أن يبدأ بالقراءة من تاريخ اليوم الذي عزم أن يقرأ الكتاب فيه، ويقطف من ثمرات وفوائد ذلك اليوم. وفي كل يوم يجد القارئ جملة من المقتطفات التي تدور حول موضوع واحد؛ قد يكون له ارتباط بذلك اليوم أو الأيام أو الشهر تحديدًا وقد لا يكون. ولكن الموضوعات تُشكِّل في مجملها خلاصة الفوائد والخواطر والدروس التي تُعين المسلم على التجارة مع الله والعمل الصالح الذي يكون بإذن الله زادًا له في الدنيا ونجاة له في الآخرة برحمة الله ومِنَّته وفضله. وهذا الجزء مخصص لفوائد شهر ربيع الآخر، أسأل الله أن يكون فيه النفع والفائدة وأن يكون حجة لكاتبه وقارئه وكل من أعان على نشره وتوزيعه.

كتبه الفقير إلى عفو ربِّه
أ.د.خالد بن عبد الغفَّار آل عبد الرحمن
drkhalid63@gmail.com
الرياض
شهر ربيع الآخر ١٤٤٥هـ



فهرس فوائد شهر ربيع الآخر



١ ربيع الآخر
حُسْن الظنِّ بالله

حُسْنُ ظنِّ العبد بربِّه هو أن يظنَّ العبد بأنَّ الله سيرحمه، ويعفو عنه، بالإضافة إلى اعتقاده بما يليق بجلال الله عزَّ وجلَّ، وما تقتضيه أسماؤه الحُسنى، وصفاته العُلا مِن ظنِّ الإجابة والمغفرة والقبول، وإنفاذ الوعد والمجازاة، الأمر الذي يُؤثِّر على حياة المؤمن، بحيث تصبح على الوجه الذي يَرضى الله عزَّ وجلَّ عنه به، حيث إنَّ حُسْنَ الظنِّ بالله من العبادات التي لا يتمُّ التوحيد إلَّا بها، فهو من واجبات التوحيد الرئيسة.

وقد عرَّفه الشيخ محمد بن صالح العثيمين- رحمه الله- بأنَّه: رجاءٌ بالله يقود صاحبه للعمل الصالح، ويشحذ هِمَّته للعبادة والتطلُّع لما عند الله تعالى من فضْل(١).

والظنُّ بالله عزَّ وجلَّ نوعان:

الأول: الظنُّ المُنجي؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾(٢).

الثاني: الظنُّ المُردِي؛ كقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ﴾(٣).

وروي عن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- في هذه الآية: هؤلاء قوم كانوا يُدمنون المعاصي ولا يتوبون منها ويتكلَّمون على المغفرة، حتَّى خرجوا من الدنيا مفاليس، ثم قرأ:﴿وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾(٤).

---

(١) نسبه لشرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين (٣/٣٣٥) الباحث سبيل ملهي الحربي في مقالته (حسن الظن بالله تعالى).
ولم أقف عليه في شرح رياض الصالحين، , وإنما في الموضع المذكور قول الشيخ العثمين: " متى يحسن الظن بالله عز وجل؟ يحسن الظن بالله إذا فعل ما يوجب فضل الله ورجاءه، فيعمل الصالحات ويحسن الظن بأن الله تعالى يقبله، أما أن يحسن الظن وهو لا يعمل؛ فهذا من باب التمني على الله، ومن أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني فهو عاجز. حسن الظن بأن يوجد من الإنسان عمل يقتضي حسن الظن بالله عز وجل، فمثلاً إذا صليت أحسن الظن بالله بأن الله يقبلها منك، إذا صمت فكذلك، إذا تصدقت فكذلك، إذا عملت عملاً صالحاً أحسن الظن بأن الله تعالى يقبل منك، أما أن تحسن الظن بالله مع مبارزتك له بالعصيان فهذا دأب العاجزين الذين ليس عندهم رأس مالٍ يرجعون إليه". شرح رياض الصالحين (٣/ ٣٣٥).

(٢) البقرة: ٤٦.

(٣) فصلت: ٢٣.

(٤) ينظر: تفسير القرطبي (١٥/ ٣٥٣). الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.



وهناك مواطنُ لحُسْن الظنِّ بالله؛ نذكر منها:

١- عند الموت: فعن جابر- رضي الله عنه- قال: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول:" لا يموتَنَّ أحدُكم إلَّا وهو يُحسن الظنَّ بالله عزَّ وجلَّ " رواه مسلم(١).

٢- عند الشدائد والكَرْب: فإنَّ الثلاثة الذين تخلَّفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبوك لم يُكشف عنهم ما بهم من كربٍ وضيقٍ إلَّا بعد ما أحسنوا الظنَّ بربهم، قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٢).

٣- عند ضيق العيش: فعن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" مَن نزلتْ به فاقةٌ فأنزلها بالناس لم تُسَدَّ فاقتُه، ومن نزلتْ به فاقةٌ فأنزلها بالله فيوشِكُ الله له برزقٍ عاجلٍ أو آجلٍ". رواه الترمذي (٣). وإنزالها بالله معناه: أن توقن وتظنَّ أن الله تعالى يُفرّجُ عنك ويزيلها.

٤- عند الدعاء: فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة " رواه الترمذي(٤).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٠٦) برقم (٢٨٧٧) كتاب صفة القيامة والجنة والنار باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت. المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) التوبة: ١١٧،١١٨.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٥٦٣) برقم (٢٣٢٦) أبواب الزهد باب ما جاء في الهم في الدنيا وحبها. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٥/ ٣٢٦) وقال: "صحيح بلفظ: "... بموت عاجل أو غنى عاجل"". سنن الترمذي، المؤلف: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م. صحيح وضعيف سنن الترمذي، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب : برنامج منظومة التحقيقات الحديثية –المجاني– من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٥١٧) برقم (٣٤٧٩) أبواب الدعوات باب بدون ترجمة. والحاكم في المستدرك ١/ ٤٩٣، كتاب الدعاء باب لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه، والحديث حسنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٧/ ٤٧٩).



وقال الشاعر:

وإِنِّي لأدعو الله حتَّى كأنَّني أرى بجميلِ الظنِّ ما اللهُ صانعُ[(١)]

٥- عند التوبة: فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربِّه عزَّ وجلَّ قال:" أذنب عبدٌ ذنبًا، فقال: اللهمَّ اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدي ذنبًا فعلم أنَّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي ربِّ اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبًا فعلم أنَّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب، فقال: أي ربِّ اغفر لي ذنبي. فقال تبارك وتعالى: عبدي أذنب ذنبًا فعلم أنَّ له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ بالذنب. اعمل ما شئتَ فقد غفرتُ لك ". متفق عليه[(٢)]. أي: ما دمتَ أنَّك تُذنب وتتوب فإنِّي أتوب عليك ولو تكرَّر الذنب منك[(٣)].

وإنِّي لآتي الـذنبَ أعـرفُ قـدرَه وأعلــــمُ أنَّ اللهَ يعفو ويغفرُ

لئنْ عظَّــمَ النَّاسُ الذنوبَ فإنَّها وإنْ عظُمتْ في رحمةِ اللهِ تصغُرُ[(٤)]

---

(١) البيت منسوب إلى محمد بن وهيب الحميري كما في الكامل في اللغة والأدب، لمحمد بن يزيد المبرد، أبو العباس (المتوفى: ٢٨٥هـ) الكامل في اللغة والأدب (٢/ ٦)، وكذلك في المنتحل لأبي منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ) (١/ ١١١)، وفي خاص الخاص (ص: ١١٩)، وفي ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري (٣/ ٢٨٥) وقال الثعالبي في لباب الآداب (ص: ١٨٦): "محمد بن وهيب الحِميري: غرة شعره وأمير كلامه قوله: وإني لأرجو اللهَ حتى كأنني ... أرى بجميلِ الظنِّ ما اللهُ صانعُ.

والبيت نسب أيضا لمسكين الدارمي كما في الفرج بعد الشدة للتنوخي (٥/ ١٢).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ١٤٥) برقم (٧٥٠٧) كتاب التوحيد باب قول الله تعالى {يريدون أن يبدلوا كلام الله} [الفتح: ١٥]. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢١١٢) برقم (٢٧٥٨) كتاب التوبة باب قبول التوبة من الذنوب وإن تكررت. الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٣) قال الحافظ في (الفتح) : "قال القرطبي: وفائدة هذا الحديث أن العود إلى الذنب وإن كان أقبح من ابتدائه لأنه انضاف إلى ملابسة الذنب نقض التوبة، لكن العود إلى التوبة أحسن من ابتدائها لأنه انضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم والإلحاح في سؤاله والاعتراف أنه لا غافر للذنب سواه، قال الحافظ: وقال النووي: في الحديث أن الذنوب ولو تكررت مائة مرة بل ألفا وأكثر وتاب في كل مرة قبلت توبته أو تاب عن الجميع توبة واحدة صحت توبته، وقوله: " اعمل ما شئت " معناه: ما دمت تذنب فتتوب غفرت لك". فتح الباري لابن حجر (١٣/ ٤٧١).

(٤) حسن الظن بالله لابن أبي الدنيا (ص: ١٠٦). حسن الظن بالله، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقق: مخلص محمد، الناشر: دار طيبة – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.



وهناك تلازم بين حُسْن الظنِّ بالله والعمل، وهذا التلازم مستقرٌ عند أهل السُّنَّة والجماعة، فلا يوجد من يقول بتجريد أحدهما عن الآخر، بل تتابعوا على القول بالتلازم بينهما.

قال الشيخ ابن باز- رحمه الله- في معرض التعليق على حديث:" لا يموتنَّ أحدُكم إلَّا وهو يُحسن الظنَّ بالله تعالى "، قال:" هذا حديث صحيح، رواه مسلم في الصحيح: لا يموتنَّ أحدُكم إلَّا وهو يُحسن ظنَّه بالله، والله يقول: أنا عند ظنِّ عبدي بي، والمعنى: أنَّه يُحسن ظنَّه بالله، أنَّ ربَّه جوادٌ، وأنَّه كريمٌ، وأنَّه غفورٌ رحيمٌ سبحانه، وأنَّه يتوب على عباده إذا تابوا إليه، وأنَّ فضله عظيمٌ، يُحسِن ظنَّه بربِّه، مع الجِدّ في العمل الصالح مع التوبة "(١).

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين- رحمه الله-: لا شكَّ في أنَّ العبد المسلم ينظر إلى حُسْن الظنِّ بالله تعالى على أنَّه مُعينٌ له على عبادة الله سبحانه؛ فحُسْن الظنِّ بالله والعبادة في قناعة المسلم متلازمان لا ينفكُّ أحدهما عن الآخر ... إلى أن قال: ومُخطئٌ مَن اعتقد أنَّ حُسْن الظنِّ بالله يُغني عن العمل والعبادة، ومَن اعتقد ذلك فقد أساء لنفسه، وأساء الظنَّ والأدب مع الله سبحانه؛ فالذي يُجاهر بالمعاصي ولا يستقيم على فعل الطاعات، فهو عاجز لا يدرك حقيقة حُسْن الظنِّ بالله(٢).

يقول الحسن البصري: ليس الإيمان بالتحلِّي ولا بالتمنِّي، ولكن ما وقر في القلب وصدَّقه العمل، وإنَّ قومًا غرَّهم حُسْن الظنِّ بالله حتَّى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، يقولون: نُحسن الظنَّ بالله، كذبوا والله؛ لو أحسنوا الظنَّ لأحسنوا العمل(٣).

ومن الأمثلة على حُسن الظنِّ بالله تعالى:

إبراهيم- عليه السلام-: وذلك عندما أُوقدتْ له نارٌ لم يُوقدْ مثلها قط، لها شرر عظيم، ولهب مرتفع، جُمع لها الحطب شهرًا، حتَّى إنَّ الطير ليمرُّ بجنباتها فيحترق من شدَّة وهجها، يُلقى فيها مربوطًا من بعيد، فيقول وهو في الهواء مُناديًا مَن في السماء: (حسبُنا الله ونعم الوكيل)؛ فكانت نتيجة حُسن ظنِّه بربِّه تعالى أن يأتيَ الأمر من رب سميع ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾(٤).

---

(١) موقع الشيخ ابن باز عليه رحمة الله. معنى حسن الظن بالله(binbaz.org.sa)

(٢) نسبه لشرح رياض الصالحين للشيخ ابن عثيمين (٣/٣٣٥) الباحث سبيل ملهي الحربي في مقالته (حسن الظن بالله تعالى). ولم أقف عليه في شرح رياض الصالحين، فالله أعلم.

(٣) ينظر: الدين الخالص أو إرشاد الخلق إلى دين الحق (٧/ ٢١). والأثر أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ١٦٣) برقم: ٣٠٣٥١.

(٤) الأنبياء: ٦٩، ٧٠.

وأيضًا نبيُّنا محمد صلى الله عليه وسلم: وذلك حين هجرته من مكة إلى المدينة، ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾[١] ؛ يقول أبو بكر الصديق- رضي الله عنه-: " نظرتُ إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلت: يا رسول الله؛ لو أنَّ أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال عليه السلام: يا أبا بكر؛ ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟" متفق عليه[٢]؛ فكانت النتيجة: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٣].

الخلاصة: لا أجد في حُسن الظنِّ بالله بعد ذلك؛ أفضل من قول الإمام ابن القيم- رحمه الله-:

فلا تُظنَّنَّ بربِّك ظنَّ سَوءٍ ... فإنَّ اللهَ أولى بالجميلِ
ولا تَظُنَّنَّ بنفسِك قطُّ خيرًا ... فكيف بظالمٍ جانٍ جهولِ
وقُلْ: يا نفسُ مأوى كلِّ سَوءٍ ... أترجو الخيرَ من ميْتٍ بخيلِ
وظُنَّ بنفسِك السُوأى تجدْها ... كذاكَ وخيرَها كالمستحيلِ
ومَا بِكَ من تُقىً فيها وخيرٍ ... فتلكَ مواهبُ الرَّبِّ الجليلِ[٤]

---

(١) التوبة: ٤٠.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ٦٦) برقم (٤٦٦٣) كتاب تفسير القرآن باب قوله: {ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه: لا تحزن إن الله معنا} [التوبة: ٤٠]. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٨٥٤) برقم (٢٣٨١) كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم باب من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٣) التوبة: ٤٠.

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٢١١). زاد المعاد في هدي خير العباد، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيِّم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت- مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، ١٤١٥هـ /١٩٩٤م.



٢ ربيع الآخر
بين الخوف والرجاء

الخوف والرجاء من أجَلِّ أعمال القلوب، والمراد بالخوف ما يجده الإنسان في قلبه من ألمٍ بسبب توقُّعه للمكروه في المستقبل، وأخوف الناس مَن كان أعرفَهم بنفسه وبربِّه، قال الله تعالى:﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[١]، ويظهر أثر الخوف على العبد من خلال جوارحه وذلك بكفّها وامتناعها عن المعاصي والتزامها للطاعات.

والخوف قسمان: محمودٌ ومذموم؛ فمتى كان الخوف مُعتدِلًا لا إفراطَ ولا مبالغة فيه كان محمودًا، ومتى تجاوز حد الاعتدال حتى يصل إلى القنوط واليأس كان مذمومًا.

أما الرجاء فهو ارتياح الشخص لانتظار ما هو محبوب إليه، فإذا لم يكن هناك سبب معلوم لانتظاره كان رجاؤه تمنِّيًا[٢]، ولا يتمُّ إطلاق الخوف والرجاء إلَّا على الأمر الذي يُتردَّد فيه، والرجاء أمر محمودٌ يحثُّ الشخص ويبعثه على العمل، ويجعله يواظب على فعل الطاعات، ويورث التلذُّذ بمداومة الإقبال على الله تعالى ومناجاته.

وحُبُّ المؤمن لله تعالى مقرون بالإجلال والتعظيم، إنَّه حُبُّ المملوك لمالكه، حُبُّ العبد لسيده، حُبُّ المخلوق المقهور الضعيف لخالقه الله الواحد القهار، ولذلك فإنَّ المُحبِّين الصادقين في مقام متوازن بين الرجاء والخوف.

فرجاؤهم مُعلَّق برحمة الله تعالى ولا يخافون إلَّا الله، فهم أشدُّ الناس خوفًا من الله تعالى، وقد جمع الله تعالى أركان هذا المقام الإيماني الرفيع في وصفه للملائكة المُقرَّبين، والأنبياء المرسلين، والصالحين العابدين، فقال جلَّ جلاله:﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾[٣]، لكي يبقى المُسلم مُطمئنًا ومُتيقِّظًا، يحدوه الأمل والرجاء في رحمة الله ومغفرته، وهو كذلك يخشى ويخاف عذاب الله سبحانه، وهذا هو المنهج الوسط.

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) جاء في "شرح المفصل" لابن يعيش (٤/ ٥٧٠) في الفرق بين الرجاء والتمني: "الفرقُ بينهما : أنّ الترجّي توقُّعُ أمر مشكوك فيه أو مظنونٍ، والتمنّي طلبُ أمر موهوم الحصول، وربماكان مستحيلَ الحصول، نحوَ قوله تعالى: {يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ}، وهذا طلبُ مستحيل، إذكان الواقع بخلافه".

(٣) الإسراء: ٥٧.



فالرجاء منزلة عظيمة من منازل العبودية، وهي عبادة قلبيَّة تتضمَّن ذُلًّا وخضوعًا، أصلها المعرفة بجود الله وكرمه وعفوه وحلمه، ولازمها الأخذ بأسباب الوصول إلى مرضاته، فهو حُسْن ظنٍّ مع عملٍ وتوبةٍ وندمٍ.

والخوف كذلك؛ منزلة عظيمة من منازل العبوديَّة، وهو من عبادات القلوب التي لا تكون إلَّا لله سبحانه، وصرْفُها لغيره شركٌ أكبر. إذ إنه مِن تمام الاعتراف بملكه وسلطانه، ونفاذ مشيئته في خلقه.

والخوف من عقاب الله نوع من أنواع العبادة، ورجاء ثوابه نوع آخر من أنواع العبادة، فلا بُدَّ أن يجمع المسلم بين الخوف والرجاء دائمًا، فلا يُغلِّب جانب الخوف؛ فيشابه الخوارج الذين يُكفِّرون بالمعاصي ويُخلِّدون أصحابها في النار، ولا يُغلِّب جانب الرجاء؛ فيشابه المُرجئة الذين يَزهَدون في الأعمال ويُزهِّدون فيها، ولا يُقيمون لها وزنًا، بل ويُقلِّلون من شأنها؛ لقولهم: "لا يضر مع الإيمان ذنب".

وتغليب الخوف قنوط من رحمة الله:﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[١]، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[٢]، وتغليب الرجاء وحده أمْنٌ من مكْر الله: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[٣]، فالله سبحانه وتعالى أمرَنا بالجمع بين الخوف والرجاء، وهذه طريقة الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا﴾[٤].

هذه طريقة الأنبياء؛ الجمع بين الخوف والرجاء، لا يعتمدون ولا يُرجِّحون جانبًا دون الآخر، فلا يَيئسون من رحمة الله مهما عظمت الذنوب، ولا يُيئِّسون غيرَهم ويقنطونهم من رحمة الله؛ بل يتوبون إلى الله من جميع الذنوب، والله يغفر الذنوب جميعًا:﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾[٥].

---

(١) الحجر: ٥٦.

(٢) يوسف: ٨٧.

(٣) الأعراف: ٩٩.

(٤) الأنبياء: ٩٠.

(٥) الزمر: ٥٣،٥٤.



وممَّا رواه الترمذي أنَّ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم دخلَ على شابٍّ وَهوَ في الموتِ فقالَ: كيفَ تجدُكَ؟ قالَ: واللَّهِ يا رسولَ اللَّهِ؛ إنِّي أرجو اللَّهَ وإنِّي أخافُ ذنوبي، فقالَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: لَا يجتَمِعانِ في قلبِ عبدٍ في مثلِ هذا الموطِنِ إلَّا أعطاهُ اللَّهُ ما يرجو، وآمنَهُ ممَّا يخافُ(١).

وجاء في الحديث أن رجلًا من بني إسرائيل قتل مائة نفسٍ ظُلمًا وعُدوانًا (والحديث متفق عليه)، فسأل: هل لي من توبة؟ فدلُّوه على عالِمٍ مِن علمائهم، فسأله أنَّه قتل مائة نفسٍ؛ فهل له من توبة؟ قال: نعم، ومَن يحول بينك وبين التوبة، ولكنَّك بأرض سوء، فاذهب إلى أرض كذا وكذا؛ فإنَّ فيها أناسًا صالحين يعبدون الله فاعبد الله معهم، فتاب الرجل، وخرج مُهاجِرًا من أرض السوء إلى الأرض الصالحة فأدركته الوفاة في الطريق بينهما، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، ملائكة الرحمة يقولون: إنه جاء تائبًا مُقبلًا بقلبه إلى الله عزَّ وجلَّ، وملائكة العذاب يقولون: إنَّه لم يعمل خيرًا قط، فأرسل الله إليهما ملكًا بصورة رجل يحكم بينهما، فقال: قيسوا ما بين البلدتين، فإلى أيتهما كان أدنى فهو له، فقاسوا ما بين البلدتين فوجدوه أقرب إلى الأرض الطيبة بشبرٍ، فقبضته ملائكة الرحمة(٢).

فالمسلم لا ييئس من رحمة الله، فإنَّه إذا أيس من رحمة الله استمر في الذنوب والمعاصي، وإذا رجا رحمة الله فإنَّه يتوب ويعمل الطاعات والخيرات، والله يقبل من تاب وأناب.

وفي الحديث أن رجلًا من بني إسرائيل كان يرى أخاه على المعصية فينهاه، ثم يراه مرة ثانية فينهاه، ثم بعد ذلك لما لمْ ينتهِ؛ قال هذا الرجل: واللهِ لا يغفر الله لفلان، قال الله سبحانه:" مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ - أي يحلف عليَّ - أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ فإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَه وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ". رواه

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٣/ ٣٠٢) برقم (٩٨٣) أبواب الجنائز باب بدون ترجمة. والنسائي في السنن الكبرى (٩/ ٣٩٠) برقم (١٠٨٣٤) كتاب عمل اليوم والليلة ما يقول المريض إذا قيل له: كيف تجدك؟. وابن ماجه في سننه (١٤٢٣/٢) برقم (٤٢٦١) كتاب الزهد باب ذكر الموت والاستعداد. والحديث حسنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٢/ ٤٨٣). السنن الكبرى، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، حققه وخرج أحاديثه: حسن عبد المنعم شلبي، أشرف عليه: شعيب الأرناؤوط، قدم له: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م. سنن ابن ماجه، المؤلف: ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٤) برقم (٣٤٧٠) كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢١١٨) برقم (٢٧٦٦) كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله.

مسلم(١). لماذا؟ لأنَّه يئس من رحمة الله للمذنب، فقال: والله لا يغفر الله لفلان، حلف أنَّ الله لا يغفر لفلان، فهو آيس من رحمة الله، فبسبب ذلك غضِبَ الله عليه، فقال الله له: إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَه وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ.

والخلاصة: أن الإنسان لا يقنط من رحمة الله، كما أنَّه لا يأمن من عذاب الله عزَّ وجلَّ، فيكون بين الخوف والرجاء، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة؛ الجمع بين الخوف والرجاء، وهذا هو الصراط المستقيم الذي يسير عليه المسلم، فيخاف من ذنوبه فيتوب، ويرجو رحمة الله فيُكثر من الحسنات والطاعات، فمن خالف ذلك فهو والعياذ بالله تعالى إما من الخوارج وإما من المرجئة.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: القلبُ في سيره إلى الله عزَّ وجلَّ بمنزلة الطائر، فالمحبَّة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلِم الرأس والجناحان فالطائر جيِّدُ الطيران، ومتى قُطع الرأس مات الطائر، ومتى فُقِد الجناحان فهو عرضة لكل صائدٍ وكاسر(٢).

أمـــامَ بَابِــك يَا ربَّـــاهُ أوقَفَنـــــي   رجاءُ صفحِك ما أخطأتُ في حَدْسِي
أخـافُ إن أبعــدتْ بي عنـكَ راحلـتي   وإنْ دنتْ منكَ يَحيَا القلبُ فـي أُنْسِ
في هـــدأةِ الليـلِ أتلـو ضـارعًا وجـلًا   وأسكبُ الـدمعَ فـي أوقـاتيَ الخَمْسِ
أخشـــــــى لقاكَ وأدعو أنْ يُرافقَـهُ   مَـوتٌ أُزفُّ بـه في ليـلـةِ العُـرْسِ(٣)

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٢٣) برقم (٢٦٢١) كتاب البر والصلة والآداب باب النهي عن تقنيط الإنسان من رحمة الله تعالى.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (١/ ٥١٣). مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد المعتصم بالله البغدادي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

(٣) الأبيات للدكتور محمد علي الطبلاوي في قصيدة له بعنوان:" خوف ورجاء". https://al-omah.com/459320-2.

٣ ربيع الآخر
مَن تواضع لله رفعه

التواضعُ صفة حميدةٌ، وخُلَّة مجيدة، ترفعُ الرأس، وتُؤلِّفُ بينَ قلوبِ الناسِ، وتزيدُ المحبةَ والمودةَ، وتنشرُ الإخاءَ والصَّفاءَ الذي هو مطلبٌ للمسلمِ فِي كلِّ أحوالِهِ، وفِي إقامتِهِ وتجوالِهِ، فهو رابطُ المسلمِ مَعَ كلِّ الناسِ مِنَ المسلمينَ وغيرِ المسلمينَ، كبيرِهِمْ وصغيرِهِمْ، غنيِّهِمْ وفقيرِهِمْ، فالنَّاسُ كلُّهُمْ سواسية لا فرق بيْنَ عربِيٍّ وأعجمِيٍّ، ولَا بيْنَ أبيضَ ولَا أسودَ إلَّا بالتَّقْوَى والعملِ الصَّالِحِ، ففي صحيح مسلم يقول النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ اللهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتَّى لَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ"(١).

فالمتواضع يبدأ مَن لقيه بالسلام، ويُجيب دعوة مَن دعاه، وهو كريم الطبع، جميلُ العِشْرة، طلقُ الوجه، رقيق القلب، متواضع عن رفعة، ليّن من غير ذِلَّة، جواد من غير إسراف.

خُلُقُ التواضع مَنْ تخلَّقَ بهِ رفعَهُ اللهُ، ومَنْ تمسَّكَ بهِ أسعدَهُ اللهُ، قَالَ سبحانَه: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(٢).

قال الإمام السعدي:﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾التي أخبر الله بها في كُتبه، وأخبرتْ بها رسله، التي قد جمعتْ كل نعيم، واندفع عنها كلُّ مُكدِّر ومُنغِّص،﴿ نَجْعَلُهَا ﴾ دارًا وقرارًا﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبُّر عليهم وعلى الحق ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والإفساد، لزم من ذلك أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح(٣).

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٩٨) برقم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار.

(٢) القصص: ٨٣.

(٣) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٢٥). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠م.

ولا تمشِ فوقَ الأرضِ إلَّا تَواضُعًا فكَمْ تحتَهـا قـومٌ هُـمْ منـك أرفـعُ
فإنْ كنتَ في عزٍّ وخيرٍ ومَنعةٍ فكمْ ماتَ مِن قومٍ هُمْ منـــكَ أمْنَعُ[١]

فمَنْ أرادَ الرفعةَ عندَ اللهِ، والمكانةَ عندَ الناسِ؛ فعليهِ بالتواضعِ، وعليه بحُسْنِ الخلقِ، فهُمَا السبيلُ إلَى ذلكَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: " ما نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللَّهُ ". رواه مسلم[٢]، وقالَ الخليفةُ الصديق أبُو بكرٍ- رضيَ اللهُ عنه-: وجدْنَا الْكَرَمَ فِي التَّقْوَى، والْغِنَى فِي اليقينِ، وَالشَّرَفَ فِي التَّوَاضُعِ[٣].

ومن كان يُحبُّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ويرجو قُرْبَهُ، وأَنْ يُحشَرَ معَهُ؛ فليتأسَّ بأخلاقِهِ صلى الله عليه وسلم، وقد أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ نبيَّهُ الكريمَ مُحمَّدًا صلى الله عليه وسلم بمعاملَةِ أصحابِهِ جميعًا بالتَّواضعِ واللِّينِ، وخفضِ الجناحِ لَهُمْ، فقالَ تعالَى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾[٤]، بل إنَّ الدعوةَ إلى اللهِ ما قامتْ إلَّا باللينِ والتواضعِ والرحمةِ، قالَ تعالى﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَ﴾[٥].

وكانَ النبي صلى الله عليه وسلم يزورُ ضُعَفَاءَ المُسْلِمِينَ، وَيَعُودُ مَرْضَاهُمْ، وَيَشْهَدُ جَنَائِزَهُمْ، ومِنْ تواضعِهِ- صلى الله عليه وسلم-: أَنَّهُ كانَ يَزُورُ الصحابةَ، وَيُسَلِّمُ عَلَى صِبْيَانِهِمْ، وَيَمْسَحُ بِرُءُوسِهِمْ، يتمثَّلُ- صلى الله عليه وسلم قولَ ربِّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٦].

قال الإمام القرطبي- رحمه الله-: أَلِنْ جانبك لمن آمن بك وتواضعْ لهم، وأصله أنَّ الطائر إذا ضمَّ فرخه إلى نفسه بسط جناحه، ثم قبضه على الفرخ، فجعل ذلك وصفًا لتقريب الإنسان أتباعه[٧].

وفِي البخاري يقول أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ- رضيَ اللهُ عنهُ-:" كَانَتِ الأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ "[٨].

---

(١) ينظر: لباب الآداب لأسامة بن منقذ (١/ ٢٥٦).
(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٠١) برقم (٢٥٨٨) كتاب البر والصلة والآداب باب استحباب العفو والتواضع.
(٣) ذكره عنه الغزالي في إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٣). إحياء علوم الدين، المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، الناشر: دار المعرفة – بيروت.
(٤) الكهف: ٢٨.
(٥) آل عمران: ١٥٩.
(٦) الشعراء: ٢١٥.
(٧) تفسير القرطبي (١٠/ ٥٧).
(٨) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٠) برقم (٦٠٧٢) كتاب الأدب باب الكبر.

وقال سبحانه وتعالى أيضًا: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[١]، قال الإمام القرطبي- رحمه الله-: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ هذا نَهْيٌ عن الخيلاء، وأَمْرٌ بالتواضع[٢].

وقال الشيخ السعدي- رحمه الله-: أي كِبْرًا وتيهًا وبطَرًا، مُتكبّرًا على الحقّ، ومُتعاظمًا على الخَلْق، ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ في تكبُّرك، بل تكون حقيرًا عند الله، ومُحتقَرًا عند الخَلْق، مبغوضًا ممقوتًا، قد اكتسبتَ أشرَّ الأخلاق، واكتسيتَ أرذلَها من غير إدراكٍ لبعض ما تروم[٣].

وإنَّ من الأمور التي يكتسب بها الإنسان التواضع:

- مجالسة المساكين والفقراء، فهذا يكسر ما في نفسه من الكبر قطعًا لو كان فيه، ويزيده تواضعًا، وكذلك إجابة دعوتهم؛ لأنَّ هؤلاء الضعفة يرغب عنهم الناس، ولذلك لما جاء صناديد قريش إلى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وكان جالسًا مع العبيد والضُّعفاء؛ كصهيب وبلال وعمَّار وخبَّاب- رضي الله عنهم جميعًا-، قالوا: أنجلس مع هؤلاء الأعبد؟! هَمَّ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم لشيءٍ رآه في مصلحة الدَّعوة أن يقوم عن هؤلاء، ويجلس معهم في مجلسٍ منفصلٍ، فأنزل الله الآية: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[٤][٥].

- قد يحدث للإنسان حادثٌ يُصاب به فيزداد به تواضعًا، فقد يكون فيه أحيانًا شيءٌ من الانكسار، كفقرٍ أو مرضٍ، وقد يكون إنسانًا جبارًا فيمرض فيتواضع، وفي هذا تربيةٌ على التَّواضع.

وفي قصَّة العضباء شاهدٌ على ذلك، فعن أنس- رضيَ اللهُ عنهُ- قال:" كانت ناقةٌ لرسول الله- صلى الله عليه وسلم- تُسمَّى العضباء، وكانت لا تُسبَق، فجاء أعرابيٌّ على قعودٍ له فسبقها، فاشتدَّ ذلك على المسلمين إذ كيف تُسبَق ناقة الرَّسول صلى الله عليه وسلم، فاشتدَّ ذلك عليهم ووجدوا في

---

(١) الإسراء: ٣٧.

(٢) تفسير القرطبي (١٠/ ٢٦٠).

(٣) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٥٧).

(٤) الكهف: ٢٨.

(٥) رواه ابن ماجه في سننه (١٣٨٢/٢) برقم (٤١٢٧) كتاب الزهد باب مجالسة الفقراء. والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٧/ ٨٧٤). سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، (لمكتبة المعارف)، عام النشر: جـ ١ - ٤: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، جـ ٦: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، جـ ٧: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

أنفسهم، وقالوا: سُبِقت العضباء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ حقًّا على الله ألَّا يرفع شيئًا من الدُّنيا إلَّا وضعه ". رواه البخاري(١).

- ومن ذلك التأسِّي بأخلاقه صلى الله عليه وسلم في تواضعه مع الصغار والكبار، فقد جاء في الحديث الصَّحيح المتفق عليه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان إذا مرَّ بصبيانٍ سلَّم عليهم(٢).

وكذلك جاء في الحديث:" أنَّ امرأةً سوداء كانت تقُمُّ المسجد؛ أي تنظِّفه على عهد النَّبي- صلى الله عليه وسلم-، امرأةٌ سوداء فقيرةٌ، عملها تنظيف المسجد، فلمَّا ماتت ودفنوها ليلًا؛ عاتبهم النَّبيُّ- صلى الله عليه وسلم- لأنهم لم يخبروه، وخرج وصلَّى على قبرها". متفق عليه(٣).

وكان النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم يحكي لأصحابه ما كان في ماضيه من رعيه للغنم، فقال:" ما بعث الله نبيًّا إلَّا رعى الغنم. قال أصحابه: وأنتَ؟ قال: نعم، كنتُ أرعاها على قراريط لأهل مكة". رواه البخاري(٤)، وهذا من تواضعه صلى الله عليه وسلم.

تَواضعْ تكُنْ كَالنجمِ لَاحَ لناظرٍ ... على صفحاتِ الماءِ وهُوَ رفيعُ
وَلَا تَكُ كَالدُّخانِ يَرفعُ نفسَـهُ ... إلى طبقاتِ الجوِّ وهُوَ وضيعُ(٥)

والخلاصة: من أراد التواضع فليحتقِرْ نفسه في جنب الله، وليذكرْ هفواته وخلواته، قال مالك بن دينار:" لو أنَّ مناديًا يُنادي بباب المسجد ليخرجْ شرُّكم رجلًا، والله ما كان أحدٌ يسبقني إلى الباب إلَّا رجلًا بفضْل قوةٍ أو سعْيٍ"، فلما بلغ ابن المبارك قوله قال:" بهذا صار مالك مالكًا "(٦).

وقال عليُّ بن ثابت : ما رأيتُ سفيان الثوري في صدر المجلس قط، إنما كان يقعد إلى جانب الحائط ويستند إليه، ويجمع بين ركبتيه(٧).

فالتواضع الحقُّ ألَّا يرى الإنسانُ لنفسه على أحد فضْلًا.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم (٦٥٠١) كتاب الرقاق باب التواضع.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٥٥) برقم (٦٢٤٧) كتاب الاستئذان باب التسليم على الصبيان. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٧٠٨) برقم (٢١٦٨) كتاب السلام باب استحباب السلام على الصبيان.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٩٩) برقم (٤٦٠) كتاب الصلاة باب الخدم للمسجد. ومسلم في صحيحه (٢/ ٦٥٩) برقم (٩٥٦) كتاب الجنائز باب الصلاة على القبر.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٨٨) برقم (٢٢٦٢) كتاب الإجارة باب رعي الغنم على قراريط.

(٥) انظر: أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي (٤٧٩/٥). وموارد الظمآن لدروس الزمان (٤/ ١٩٢). موارد الظمآن لدروس الزمان، خطب وحكم وأحكام وقواعد ومواعظ وآداب وأخلاق حسان، المؤلف: عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن السلمان (المتوفى: ١٤٢٢هـ)، الطبعة: الثلاثون، ١٤٢٤هـ.

(٦) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٤٢).

(٧) رواه ابن الجعد في مسنده (ص: ٢٨٠). مسند ابن الجعد، المؤلف: علي بن الجَعْد بن عبيد الجَوْهَري البغدادي (المتوفى: ٢٣٠هـ)، تحقيق: عامر أحمد حيدر، الناشر: مؤسسة نادر – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٠ – ١٩٩٠. وانظر: صفة الصفوة (٢/ ٢٦٢).

٤ ربيع الآخر
القدوة الحسنة

القدوة الحسنة هي من أنجع الوسائل وأقربها للنجاح وأكثرها فاعلية في حياة المُربِّين، وتظل كلمات المُربِّين مجرد كلمات، ويظل المنهج الإسلامي مجرد حبرٍ على ورق، ما لم يتحوَّل إلى حقيقة واقعة تتحرَّك في واقع الناس، وما لم يُترجَم إلى تصرُّفات وسلوك ومعايير ثابتة، عندئذ يتحوَّل المنهج إلى حقيقة، وتتحوَّل الكلمات إلى سلوك وأخلاق، وعندئذٍ تؤتي ثمارها في حياة المُربِّين.

فكيف يكون قدوةً حسنةً ذلك الأبُ الذي يُدخِّن أمام أبنائه أو يكذب أو يشتم أو ينظر إلى الحرام؟! وكيف يكون قدوةً حسنةً ذلك المُعلِّمُ الذي يُقصِّر في أداء واجباته مع تلاميذه؟ وكيف يكون قدوةً حسنةً ذلك المديرُ الذي يتأخَّر في الحضور إلى العمل أو يُقصِّر في واجبات عمله على مرأى ومسمع من موظفيه؟ فينبغي على القدوة أن يتَّصف بفعل المعروف وترْك المُنكَر من الأقوال والأفعال في نفسه ابتداءً، ومن ثَمَّ فإنه سيظهر بمظهر القدوة الحسنة لمن هم دونه سنًّا أو مكانةً.

وقد أوصى أحدُ السلف مُعلِّمَ ولده قائلًا:" ليكن أول إصلاحك لولدي إصلاحك لنفسك، فإنَّ عيونَهم معقودةٌ بعينك، فالحَسَن عندهم ما صنعتَ، والقبيح عندهم ما تركتَ "[(١)].

والقدوة الحسنة هي خُلُق من أخلاق الأنبياء والمرسلين- عليهم الصلاة والسلام-، ولأهمِّيَّتها أورد الله عزَّ وجلَّ في القرآن الكريم صورًا عديدة من الاقتداء بالأنبياء.

فقد أرشد القرآن الكريم إلى أهمِّيَّة القدوة في حياة الأمَّة، فالله سبحانه وتعالى قد أرشد نبيَّه مُحمَّدًا صلى الله عليه وسلم إلى الاقتداء بمَن سبقه من الأنبياء والمرسلين؛ لأنَّهم صفوة الخَلْق، جبلهم على مكارم الأخلاق، وكمال الدين، ولهذا جاء الأمر بالاقتداء بهم واتِّباعهم، فقال الله تعالى بعد أن ذكر مجموعة من الرسل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾[(٢)]، وأرشد الله عزَّ وجلَّ الأمَّة إلى التأسِّي برسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع

---

(١) ذكره في العقد الفريد عن عمرو بن عتبة أنه قاله لمعلِّم ولده، ينظر: العقد الفريد (٢/ ٢٧٢). العقد الفريد، المؤلف: أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٤هـ.

(٢) الأنعام: ٩٠.



أقواله وأفعاله وأحواله، وسلوكيات حياته صلى الله عليه وسلم. فقال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾[١].

قال العلامة السَّعْديّ: حيث حضر الهيجاء بنفسه الكريمة، وباشر موقف الحرب، وهو الشريف الكامل، والبطل الباسل، فكيف تشحُّون بأنفسكم، عن أمر جَادَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه فيه؟ فَتأَسَّوا به في هذا الأمر وغيره.

واستدل الأصوليون بهذه الآية على الاحتجاج بأفعال الرسول صلى الله عليه وسلم، إلَّا ما دلَّ الدليل الشرعيُّ على الاختصاص به[٢].

فالأسوة نوعان: أسوة حسنة، وأسوة سيّئة، فالأسوة الحسنة في الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنَّ المُتأسِّي به سالك الطريق المُوصِّل إلى كرامة الله، وهو الصراط المستقيم، وأمَّا الأسوة بغيره إذا خالفه فهو الأسوة السيّئة، كقول الكفار حين دعتْهم الرسل للتأسِّي بهم: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ﴾[٣].

وهذه الأسوة الحسنة إنَّما يسلكها ويُوّفَق لها مَن كان يرجو الله واليوم الآخر، فإنَّ ما معه من الإيمان وخوف الله، ورجاء ثوابه، وخوف عقابه؛ يحثُّه على التأسِّي بالرسول صلى الله عليه وسلم.

مَشَى الطاووسُ يومًا باعْوجاجٍ   فقلدَ شكلَ مَشيتهِ بنوهُ
فقالَ: علامَ تختالونَ ؟ قالوا: بَدَأْتَ به، ونحنُ مُقلِّدوهُ
فخالِفْ سيرَكَ المعوجَّ واعدلْ   فإنَّا إن عدلْتَ مُعدلوه
أمَا تدري أبانا كلَّ فرعٍ   يُجاري بالخُطى مَن أدَّبوه؟
وينشَأُ ناشئُ الفتيانِ منَّا   على ما كان عوَّدَه أبوه[٤]

ومُقوِّمات القدوة الحسنة خمسة أمور:

---

(١) الأحزاب: ٢٢.

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٦١).

(٣) الزخرف: ٢٢.

(٤) مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (١/ ١٠، بترقيم الشاملة آليًا).



الأول: الإخلاص: وهو أن يقصد المسلم بأقواله وأفعاله التقرُّب إلى الله، والتوصُّل إلى دار كرامته، وهذا مُقوّم عظيم من مُقوِّمات القدوة الحسنة إن لم يكن هو أساسها ولبَّها، وجميع المُقوِّمات التي تليه مبنية عليه تابعة له.

والثاني: العمل الصالح وفق منهج الاتِّباع: فلا يكون قدوة حسنة مَن يُخالِف عملُه سُنَّةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ولا يكون قدوة حسنة مَن يبتدع في دين الله ما ليس منه، ولا يكون قدوة حسنة مَن يُجاهر بالمعاصي وعمل السوء.

والثالث: موافقة العمل للقول: فهما قرينان، ولا يكون قدوة حسنة أبدًا مَن تُخالِف أفعالُه أقوالَه، وأعمالُه كلامَه، قال تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾[(١)]، ولذلك ينبغي أن يكون الآمر بالخير أول الناس إليه مبادرة، والناهي عن الشر أول الناس عنه بُعدًا، كما قال تعالى عن شعيب- عليه السلام-: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾[(٢)].

روى البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد- رضي الله عنهما- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" يُؤتَى بالرجل يوم القيامة فيُلقى في النَّار فتندلق أقتابُه[(٣)]، فيدور فيها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع إليه أهل النار ويقولون: مالكَ يا فلان؛ ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: بلى؛ ولكن كنتُ آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه"[(٤)].

والرابع: علو الهِمَّة: وهي نوع من التميُّز، ولهذا ينبغي لصاحبها أن يكون صاحب هِمَّة عالية، وعزيمة مُتوقِّدة.

والخامس: التحلِّي بالأخلاق الحميدة: وخاصَّة أمَّهات الأخلاق كالحلم والصبر والصدق، والشجاعة والوفاء، والحكمة والعدل، وغيرها.

وقد كان نبيُّنا صلى الله عليه وسلم قدوة في عبادته ودعوته، وصبره وزهده، وعدله ووفائه، وكرمه وتواضعه، ومعاملته لأهل بيته، ومعاملته لغير المسلمين.

---

(١) الصف: ٢.

(٢) هود: ٨٨.

(٣) قوله: "أقتابه" أي أَمْعَاءَهُ.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٢١) برقم (٣٢٦٧) كتاب بدء الخلق باب صفة النار وأنها مخلوقة. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٩٠) برقم (٢٩٨٩) كتاب الزهد والرقائق باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله.



والاقتِداء الحسن والاتِّباع الصالح المحمود في الدنيا والآخِرة؛ إنَّما يكون من اللاحق بالسابق في الإيمان بالله والعمل الصالح الذي يُحبُّه ويَرضاه، والخُلُق الجميل الذي مدَحَه الله تعالى كما قال سبحانه عن يوسف– عليه السلام– أنَّه قال: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٧ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[(١)].

والخلاصة: أنَّه من المتفق عليه أنَّ للقدوة أهمِّيَّةً عظيمة لا تُنكَر، فهي من وسائل التربية سواء أكانت على مستوى البيت أم على مستوى المجتمع بشكل عام، فبالقدوة تنتشر الفضائل أو تشيع الرذائل، فإذا كانت القدوة حسنة فستعمُّ الفضائل، وإذا كانت سيِّئة فستشيع الرذائل، وغياب القدوة في حياة المسلمين عامل رئيس في فشو الجهل وانتشار المنكرات واستفحالها؛ وذلك لأنَّ العاملين بالعلم والقائمين بدين الله هم في الحقيقة دعاة يُعلنون الحق بأفعالهم، وينشرون الدين الحقَّ حين ينتشرون بين الناس، وقد نُقل عن إبراهيم بن أدهم أنه قال يومًا لأصحابه:" ادعوا الناس وأنتم صامتون، قالوا: كيف ذلك؟ قال: ادعوا الناس بأفعالكم "[(٢)].

---

(١) يوسف: ٣٧ ، ٣٨

(٢) ينظر: دروس للشيخ محمد المختار الشنقيطي (٢٠/ ٥، بترقيم الشاملة آليا). دروس للشيخ محمد المختار الشنقيطي، المؤلف: محمد بن محمد المختار الشنقيطي، مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.

٥ ربيع الآخر
صنائع المعروف

إنَّ فعْل الخير، وبذْل المعروف، وإسداءه للخَلْق؛ لَهُوَ مِن أحبِّ الأعمال إلى الله عزَّ وجلَّ، ويقي به الله تعالى عبده من مصارع السُّوءِ في الدُّنيا، يقول صلى الله عليه وسلم:" صنائعُ المعروفِ تقي مصارعَ السُّوءِ، وصدَقةُ السِّرِّ تطفِئُ غضبَ الرَّبِّ، وصِلةُ الرَّحِمِ تزيدُ في العمُرِ ". أخرجه الطبراني(١).

فخدمة الناس وقضاء حوائجهم، ونفْعهم بصور النفع المختلفة؛ كالإطعامِ وسقاية الماء، وسدادِ الديون، والإصلاحِ بين المتخاصمين، وبذْلِ الشفاعةِ لتحصيل خير أو دفْع شرٍّ، والسعْي في شأن الأرملة والمسكين، وكفالة اليتيم، وإعانة الضعيف، وإغاثة الملهوف، وغير ذلك من سائر المصالح التي يحتاجها الناس، وهو ما نسميه بصناعة المعروف للآخرين؛ كلُّ ذلك كان من خُلُقِ النبي، صلى الله عليه وسلم.

وقد أمَرَ الإسلامُ بالتَّعاوُنِ على البِرِّ والتَّقْوى بيْنَ النَّاسِ، وحثَّ على عَمَلِ ما أمَرَ به اللهُ تَعالى، وشدَّدَ على الانتِهاءِ عمَّا نَهى اللهُ عنه، وفي هذا الحَديثِ يقولُ النَّبيُّ- صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ-:" صَنائِعُ المعْروفِ "، وهي ما اصْطَنَعتَهُ من خَيرٍ وأسْدَيتَهُ لِغَيرِكَ،" تَقي مَصارِعَ السُّوءِ "، أي: يُجازيهم اللهُ تَعالى على مَعْروفِهِم، فيُنجِّيهم من السُّقوطِ في الهَلَكاتِ، ومَواطِنِ الزَّلَلِ.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بفعل الخير في كثير من الآيات، منها:

قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩﴾ [الحج: ٧٧.]، فقوله: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾أمر يشمل كلَّ خير.

وقال تعالى: ﴿لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوۡ مَعۡرُوفٍ أَوۡ إِصۡلَٰحِۭ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾[النساء: ١١٤].

وعن ابن عمر- رضي الله عنهما- أنَّ رجلًا جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله؛ أيُّ الناس أحبُّ إلى الله؟ وأيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٦١) برقم (٨٠١٤). المعجم الكبير، المؤلف: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية. والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٧٠٨). صحيح الجامع الصغير وزياداته، المؤلف: أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي.

أحبُّ الناس إلى الله عزَّ وجلَّ أنفعُهم للناس، وأحبُّ الأعمال إلى الله سرورٌ تُدخله على مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا، ولأن أمشي مع أخٍ لي في حاجة؛ أحبُّ إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد شهرًا (أي في مسجد المدينة)، ومن كفَّ غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غضبه- ولو شاء أن يُمضيه أمضاه- ملأ الله قلبه رخاء يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه في حاجة حتى تتهيَّأ له؛ ثبَّت الله قدمه يوم تزول الأقدام". رواه ابن أبي الدنيا(١).

وعن أنس بن مالك- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إنَّ من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشرّ، وإنَّ من الناس مفاتيح للشرّ مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشرّ على يديه ". رواه ابن ماجه(٢).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" يا نساء المسلمات؛ لا تحقرنَّ جارة لجارتها ولو فِرسِن(٣) شاة ". رواه البخاري مسلم(٤).

وقد ذمَّ الله تعالى الذين لا يفعلون الخير ولا يأمرون به؛ فقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾(٥)، وقال تعالى:﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾(٧).

قال العلامة السعدي: أي: ليس في قلبه رحمة يرحم بها الفقراء والمساكين، فلا يطعمهم من ماله، ولا يَحضُّ غيره على إطعامهم، لعدم الوازع في قلبه، وذلك لأنَّ مدار السعادة ومادتها أمران:

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج (ص: ٤٧) برقم (٣٦). والطبراني في المعجم الأوسط (٦/١٣٩) برقم (٦٠٢٦). والحديث حسنه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٩٧).

(٢) رواه ابن ماجه في سننه (١/ ٨٦) برقم (٢٣٧) افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم باب من كان مفتاحًا للخير. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (١/ ٣٠٩). صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، المؤلف : محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب : برنامج منظومة التحقيقات الحديثية – المجاني – من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.

(٣) الفِرْسِنُ: بكسر الفاء والسين، عَظْم قليل اللحم، وهو للشاةِ والبعير بمنزلة الحافر للدَّابَّة. وهو لحم بين ظلفي الشاة. وكل حافر منشق منقسم فَهُوَ ظلف. المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث (٢/ ٦٠٥).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٥٣) برقم (٢٥٦٦) كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧١٤) برقم (١٠٣٠) كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بالقليل ولا تمتنع من القليل لاحتقاره.

(٥) الماعون: ٤-٧.

(٦) المدثر: ٤٢-٤٤.

(٧) الحاقة: ٣٤-٣٦.



الإخلاص لله الذي أصله الإيمان بالله، والإحسان إلى الخَلْق بوجوه الإحسان، الذي من أعظمها دفع ضرورة المحتاجين بإطعامهم ما يتقوَّتون به، وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان، فلذلك استحقُّوا ما استحقُّوا(١).

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" ثلاثة لا يُكلِّمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم " فذكر منهم" ورجلٌ منع فضْل ماء فيقول الله: اليوم أمنعك فضلي كما منعتَ فضل ما لم تعمل يداك ". متفق عليه(٢).

ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة والمثال فنبيُّنا- صلوات الله وسلامه عليه- من قبل بعثته ومن بعدها كان أكثرَ الناس نفعًا للآخرين، وأشدَّهم حرصًا على قضاء حوائجهم، وتصفه أمُّ المؤمنين خديجة- رضي الله عنها- في أول بعثته، فتقول:" واللهِ لا يُخزيكَ الله أبدًا، إنَّك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتُكسِب المعدوم، وتقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق " متفق عليه(٣).

وقال عمرو بن العاص- رضي الله عنه-: في كلِّ شيءٍ سرفٌ إلَّا في إتيان مكرمةٍ، أو اصطناع معروفٍ، أو إظهار مروءةٍ(٤). وقد قيل: اصنع المعروف إلى كلِّ أحدٍ، فإن كان من أهله فقد وضعتَه في موضعه، وإن لم يكن من أهله كنتَ أنت أهله(٥). قال ابن عبد ربه: أشرف ملابس الدنيا وأزين حُللها وأجلبها لحمدٍ، وأدفعها لذمٍّ، وأسترها لعيبٍ؛ كرمُ طبيعةٍ يتحلَّى بها السمحُ السريُّ، والجواد السخيُّ، وكفى بالكرم فخرًا وشرفًا أنَّه صفةٌ من صفات الله تعالى تسمَّى بها، فهو الكريم عزَّ وجلَّ، ومَن كان كريمًا مِن خلقه فقد تسمَّى باسمه، واحتذى بصفته(٦).

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٨٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١١٢) برقم (٢٣٦٩) كتاب المساقاة باب من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه. وأخرجه مسلم في الصحيح ١/ ١٠٣، برقم (١٠٨).كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٧) برقم (٣) كتاب بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومسلم في صحيحه (١/ ١٣٩) برقم (١٦٠) كتاب الإيمان باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٤) ينظر: بهجة المجالس وأنس المجالس (ص: ٦٤، بترقيم الشاملة آليا). بهجة المجالس وأنس المجالس، المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ).

(٥) ينظر: الآداب الشرعية والمنح المرعية (١/ ٣١٠). الآداب الشرعية والمنح المرعية، المؤلف: محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٧٦٣هـ)، الناشر: عالم الكتب.

(٦) ينظر: العقد الفريد (١/ ١٨٨).

الناسُ بالناسِ مَا دامَ الحياءُ بهم ... والسعدُ لا شكَّ تاراتٌ وهبَّاتُ
وأفضلُ الناسِ مِن بينَ الورى رجلٌ ... تُقضى على يدِهِ للناسِ حاجاتُ
لا تمنعنَّ يدَ المعروفِ عنْ أحدٍ ... مَا دُمتَ مُقتدِرًا فالسَّعدُ تاراتُ
واشكرْ فضائلَ صُنْعِ اللهِ إذْ جُعلتْ ... إليكَ لَا لكَ عندَ الناسِ حاجاتُ
قدْ ماتَ قومٌ ومَا مَاتتْ مكارِمُهم ... وعاشَ قومٌ وهُمْ في الناسِ أمواتُ[1].

وقال تعالى عن نبيِّه موسى- عليه السلام-: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾[2].

قال الشيخ السعدي: قَالَ لهما موسى: ﴿مَا خَطۡبُكُمَا﴾ أي: ما شأنكما بهذه الحالة؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾، أي: قد جرت العادة أنه لا يحصل لنا سقْي حتى يصدر الرعاء مواشيهم، فإذا خلا لنا الجو سقينا، ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ أي: لا قوة له على السقْي، فليس فينا قوة نقتدر بها، ولا لنا رجال يُزاحمون الرعاء، فرقَّ لهما موسى- عليه السلام- ورحمهما فَسَقَى لَهُمَا غير طالب منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه الله تعالى، فلما سقى لهما، وكان ذلك وقت شدَّة حرٍّ، وسط النهار، بدليل قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ مستريحًا لذلك الظلال بعد التعب، فَقَالَ في تلك الحالة مُسترزقًا ربَّه: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ أي: إنِّي مفتقِرٌ للخير الذي تسوقه إليَّ وتيسِّره لي[3].

والخلاصة: أنَّ مِن أعظم ما ينفع العبدَ في حياته وبعد مماته، ويدفع عنه من السوء ما يعلمه وما لا يعلمه؛ بذْل المعروف للناس، ومحبَّة الخير لهم، والإحسان إليهم؛ فإنَّ ذلك لا يكون إلَّا نتاج قلب طيِّب طاهر، يُحبُّ الخير للغير، والله تعالى يُحبُّ أصحاب القلوب السليمة، الرحماء لخَلْقه، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: " إِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ "متفق عليه[4]، وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[5].

(١) موارد الظمآن لدروس الزمان (٣/ ٥١٦).
(٢) القصص: ٢٤،٢٣.
(٣) ينظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦١٤).
(٤) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٧٩) برقم (١٢٨٤) كتاب الجنائز، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه» إذا كان النوح من سنته. ومسلم في صحيحه (٢/ ٦٣٥) برقم (٩٢٣) كتاب الجنائز باب البكاء على الميت.
(٥) الأعراف: ٥٦.



٦ ربيع الآخر

أتدرون ما المفلس؟!

يحرص الجميع على زيادة مدَّخراتهم وممتلكاتهم، والمحافظة عليها، بل وتنميتها واستثمارها، ولا ضير في هذا الأمر طالما كان بالطرق المشروعة ولم يصرفنا عن طاعة الله عزَّ وجلَّ، ولم ينس العبد موقفه في الآخرة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾[1]، لذلك ينبغي أن نلتفت إلى رصيد آخر علينا أن نزيده وألا نغفل عنه.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" أَتَدْرُونَ مَا الـمُفْلِسُ؟ قالوا: الـمُفْلِسُ فِينا مَن لَا دِرْهَمَ له وَلَا مَتاعَ، فقالَ: إنَّ الـمُفْلِسَ مِن أُمَّتي يَأْتي يَومَ القِيامَةِ بصَلَاةٍ وصِيَامٍ وزَكَاةٍ، ويَأْتي قدْ شَتَمَ هذا، وقَذَفَ هذا، وأَكَلَ مالَ هذا، وسَفَكَ دَمَ هذا، وضَرَبَ هذا، فيُعْطَى هذا مِن حَسَناتِهِ، وهذا مِن حَسَناتِهِ، فإنْ فَنِيَتْ حَسَناتُهُ قَبْلَ أنْ يُقْضَى ما عليه أُخِذَ مِن خَطاياهُمْ فَطُرِحَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ". رواه مسلم[2].

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس إلى أصحابه يُبيِّن لهم الحقائق، ويُصحِّح لهم المفاهيم، ويلفت انتباههم إلى ما غاب عنهم أو التبس عليهم، وكثيرًا ما كان يُجلي لهم الفارق بين قوانين الدنيا وقوانين الآخرة.

ففي هذا الحديثِ سأَلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أصحابَهُ: أَتدْرونَ مَا المُفلِسُ؟ فَأجابوا: المُفلِسُ فينا مَن لا يملكُ مالًا، ولا متاعًا من متاع الدنيا، فقد أجابوا بما عندَهم مِنَ العِلمِ بِحسَبِ عُرْفِ أهْلِ الدُّنْيا، وغَفلُوا عَنْ أمْرِ الآخرةِ، فقال- صلى اللهُ عليه وسلم-: إنَّ المُفلِسَ مِن أُمَّتِي، أي: المفلس الحقيقيَّ، أوِ المُفْلِس في الآخرةِ، مَن يأتي يومَ القيامةِ بِصيامٍ وصلاةٍ وزكاةٍ، أي: مَقبولاتٍ، ويأتي أيضًا، أي: ويَحْضُرُ وقد شَتمَ هذا، أي: وَقعَ له شَتْمٌ وسبٌّ لِأحدٍ، وقذَفَ هذا، أي: بِالزِّنا ونحوِه، وَأكلَ مالَ هذا، أي: بِالباطلِ، وسفَكَ دمَ هذا، أي: أَراقَ دمَه بِغيرِ حقٍّ، وضرَبَ هذا، فَيُعْطى المظلومُ مِن حسناتِ الظالِمِ، وهذا، أي: ويُعطَى المظلومُ الآخَرُ بعضَ حَسناتِه، فإنْ فَنِيَتْ حَسناتُه أي: نَفِدَتْ قَبْلَ أنَّ يُؤدِّيَ ما عليه مِنَ الحقوقِ؛ أَخَذَ الظالِمُ مِن خطاياهم، أي: مِن سيِّئاتِ

---

(١) القصص: ٧٧.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٧) برقم (٢٥٨١) كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم.



أصحابِ الحقوقِ؛ فَطُرِحتْ على هذا الظالِمِ أو وُضعَتْ عليه، ثُمَّ طُرِحَ، أي: أُلْقِيَ ورُمِيَ في النَّارِ، وفيه إشعارٌ بِأنَّه لا عَفوَ ولا شفاعةَ في حقوقِ العبادِ إلَّا أنْ يَشاءَ اللهُ، فَيُرضِي المظلومَ بِمَا أرادَ، وفيه بيانُ مَعنى المُفلِسِ الحقيقيِّ، وهو مَنْ أخَذَ غُرماؤُه أعمالَه الصَّالحةَ.

إن هذه الحياة دار سعي وعمل، وإن الآخرة دار حساب وجزاء، وإن يوم القيامة هو يوم العدل المطلق، فيه تُوفَّ الحقوق وتُسترَد المظالم ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[١].

قال الشيخ السعدي: وفي ضمن إخبار الله عن علمه وقدرته؛ الإخبار بما هو لازم ذلك من المجازاة على الأعمال، ومحل ذلك يوم القيامة، فهو الذي تُوفَّى به النفوس بأعمالها فلهذا قال ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ أي: كاملًا موفرًا لم ينقص مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾[٢]، والخير: اسم جامع لكل ما يُقرِّب إلى الله من الأعمال الصالحة صغيرها وكبيرها، كما أن السوء اسم جامع لكل ما يُسخط الله من الأعمال السيّئة صغيرها وكبيرها ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾، أي: مسافة بعيدة، لعظم أسَفِها وشدة حزنها، فليحذر العبد من أعمال السوء التي لا بدَّ أن يحزن عليها أشد الحزن، وليتركها وقت الإمكان قبل أن يقول ﴿يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[٣]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾[٤]، ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾[٥]، فوالله لترْك كل شهوة ولذَّة- وإن عسُر ترْكها على النفس في هذه الدار- أيسر من معاناة تلك الشدائد واحتمال تلك الفضائح، ولكن العبد من ظلمه وجهله لا ينظر إلَّا الأمر الحاضر، فليس له عقل كامل يلحظ به عواقب الأمور[٦].

---

(١) آل عمران: ٣٠.

(٢) الزلزلة: ٧.

(٣) الزمر: ٥٦.

(٤) النساء: ٤٢.

(٥) الفرقان: ٢٧، ٢٨.

(٦) ينظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٢٨).

وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[١]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم:" لَتُؤَدُّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتَّى يُقاد للشاة الجَلحاء من الشاة القَرناء" رواه مسلم[٢].

إنَّ المتأمِّل في أسباب الإفلاس التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم يجد أنَّها كلها دائرة على سبب واحد وإن تنوَّعت صوره، ألا وهي الاعتداء على حقوق الخلق وظلمهم ". شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مالَ هذا، وسفك دمَ هذا، وضرب هذا "، وإنَّما يحمل على الاستخفاف بها والجرأة عليها أمور؛ منها الغفلة عن الحساب الأخروي، وإهمال محاسبة النفس في الدنيا، والاغترار بالقوة وأمْن العقوبة الدنيوية، والتعويل على العفو، والصحبة والمخالطة.

لذا ينبغي للإنسان أن يستحضر مراقبة الله وموقفه بين يديه وسؤال الله تعالى له يوم القيامة، فيكون على حذر من أن يزل بفعل أو قول، وقد أسمع رجلٌ عمرَ بنَ عبدِ العزيز- رحمه الله- كلامًا مؤلما فقال له: أردتَ أن يستفزنى الشيطانُ بعِزِّ السلطان فأنالَ منك اليوم ما تنالُ منى غدًا، انصرفْ رحمك الله[٣].

فما أقبحَ التفريطَ في زمن الصِّبا ... فكيف به والشيبُ نـازلُ؟
ترحَّل عن الدنيا بزادٍ من التُّقى ... فعُمرُك أيّـامٌ تُعَدُّ قلائـلُ[٤]

قال الشيخ العثيمين- رحمه الله تعالى- في شرحه على رياض الصالحين: وصدق النبي صلى الله عليه وسلم؛ فإنَّ هذا هو المفلس حقًّا، أمَّا مفلس الدنيا فإنَّ الدنيا تأتي وتذهب، ربما يكون الإنسان فقيرًا فيُمسي غنيًا، أو بالعكس، لكنَّ الإفلاس كلَّ الإفلاس أن يُفلس الإنسان من حسناته التي تعب عليها، وكانت أمامه يوم القيامة يشاهدها، ثم تؤخذ منه لفلان وفلان.

---

(١) الأنبياء: ٤٧.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٧) برقم (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظلم.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٥٤٩) برقم (٧٩٧١). شعب الإيمان، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

(٤) ينظر: التبصرة لابن الجوزي (٢/ ٢٦٦). التبصرة لابن الجوزي، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.



وفي هذا تحذير من العدوان على الخلق، وأنَّه يجب على الإنسان أن يُؤدِّي ما للناس في حياته قبل مماته، حتى يكون القصاص في الدنيا مما يستطيع، أمَّا في الآخرة فليس هناك درهم ولا دينار حتي يفدي نفسه، ليس فيه إلَّا الحسنات، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:" فيأخذ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم، ثم طرح عليه، وطرح في النار"، ولكن هذا الحديث لا يعني أنه يُخلَّد في النار، بل يُعذَّب بقدر ما حصل عليه من سيِّئات الغير التي طرحت عليه، ثم بعد ذلك مآله إلى الجنة؛ لأن المؤمن لا يُخلَّد في النار، ولكن النار حرُّها شديد، لا يصبر الإنسان على النار ولو للحظة واحدة، هذا على نار الدنيا فضلًا عن نار الآخرة، أجارنا الله وإياكم منها[١].

والخلاصة: أنَّ هذا الحديث يُبيِّن لنا هذه الصورة الرهيبة التي أطلع الله تعالى رسوله- صلى الله عليه وسلم- عليها من خلال الوحي؛ والتي ليست من مشاهد الدنيا، بل من مشاهد يوم القيامة، جديرة بأن يلفت الرسول صلى الله عليه وسلم انتباه أصحابه إليها، كما أنها جديرة بأن يُسمِّي صاحبها بالمفلس الحقيقي، وأن يكون الإنسان حذِرًا كلَّ الحذر من أن يكون من الحمقى الذين يُضيِّعون جهدهم وتعبهم وأعمالهم الصالحة في الدنيا بأمور لا يفيده ولا ينفعه فعلها أو قولها، وليبادر الإنسان بردِّ المظالم إلى أهلها قبل أن يأتي يوم ليس فيه درهم ولا دينار، بل سداد التبعات بالحسنات والسيِّئات.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٥٢٩).

٧ ربيع الآخر

فيه شفاء للناس (العسل)

يقول الله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١)، جاءَتْ هذه الآيات في جملةٍ من الآيات، فيها تذكيرٌ من الله سبحانه وتعالى للإنسان بنِعَمِه؛ بأنْ أنزَل الكتاب رحمةً وهُدًى، يُحيِي به النفوس الميتة، فهو غذاء روحي مثلما أنزل من السماء الماءَ فيُحيِي به الأرض بعد موتها، وحياة الأرض فيها حَياةٌ للإنسان، كما ذكَّر الإنسان أيضًا بالعبر في الأنعام وثمرات النخيل والأعناب، ثم ذكَر الله تعالى ما في (عسل النحل) من فوائد مادِّيَّة وفوائد روحيَّة تُذكِر الإنسان بنِعَمِ الله وآلائه.

والنحلة حشرةٌ صغيرةٌ، ومع ذلك فهي سجلٌّ حافلٌ بآيات الله البيِّنات، ففيها من الغَرائب في خِلقتها ومعيشتها ما جذَب العلماء الأجانب فأفنَوا حياتهم في دِراستها، وكلَّ يومٍ تتكشَّف لنا فيها آياتُ الله.

قال الشيخ السعدي في تفسيره: في خلق هذه النحلة الصغيرة، التي هداها الله هذه الهداية العجيبة، ويسَّر لها المراعي، ثم الرجوع إلى بيوتها التي أصلحتها بتعليم الله لها، وهدايته لها، ثم يُخرِج من بطونها هذا العسل اللذيذ مختلف الألوان بحسب اختلاف أرضها ومراعيها، فيه شفاء للناس من أمراض عديدة. فهذا دليل على كمال عناية الله تعالى، وتمام لطفه بعباده، وأنَّه الذي لا ينبغي أن يُحبَّ غيره ويُدعَى سواه(٢).

وقد ذكر الله تعالى العسل في القرآن الكريم في سياق بعض ما يتنعَّم به أهل الجنة فقال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾(٣).

---

(١) النحل: ٦٨ ، ٦٩.

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٤٤٤).

(٣) محمد: ١٥.



وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعسل لما فيه من فوائد عظيمة ؛ ففي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم أنَّ رجلًا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إنَّ أخي استَطلَق بطنه، فقال: اسقِهِ عسَلًا، فذهب فسقاه عسَلًا، ثم جاء فقال: يا رسول الله؛ سقيتُه عسَلًا فما زاده إلا استِطلاقًا، قال: اذهَبْ فاسقِه عسَلًا، فذهب فسقاه عسَلًا، ثم جاء فقال: يا رسول الله؛ ما زاده إلا استِطلاقًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" صدَق الله وكذَب بطنُ أخيك، اذهَبْ فاسقِه عسَلًا"، فذهب فسَقاه عسَلًا فبَرَأ(١).

ويبدو من هذا الحديث أنَّ الاستِشفاء بالعسَل يتطلَّب مُداوَمة تناوُله فترةً، بمثابة جرعات مُحدَّدة للعلاج، وهذا ما ثبَت طبِّيًّا.

وروى البخاري عن عبد الله بن عبَّاس- رضي الله عنهما- أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " الشفاء في ثلاثة: في شَرطة مِحجَم، أو شَربة عسل، أو كيَّة بنار، وأَنْهَى أمَّتي عن الكيِّ"(٢).

وروي عن ابن عمر- رضي الله عنهما- أَنَّهُ كَانَ لَا يَشْكُو قُرْحَة وَلَا شَيْئًا إِلَّا جَعَلَ عَلَيْهِ عَسَلًا، حَتَّى الدُّمَّل إِذَا خَرَجَ عَلَيْهِ طَلَى عَلَيْهِ عَسَلًا(٣).

وَحَكَى النَّقَّاش عَنْ أَبِي وَجْرَة أَنَّهُ كَانَ يَكْتَحِل بِالْعَسَلِ، فَكَانُوا يَسْتَشْفُونَ بِالْعَسَلِ مِنْ كُلّ الْأَوْجَاع وَالْأَمْرَاض، وَكَانُوا يُشْفَوْنَ مِنْ عِلَلهمْ بِبَرَكَةِ الْقُرْآن وَبِصِحَّةِ التَّصْدِيق وَالْيقين(٤).

وَمِنْ الْعِبْرَة فِي النَّحْل؛ أَنَّهَا تَأْكُل الْحَامِض وَالْمُرّ، وَالْحُلْو وَالْمَالِح، وَالْحَشَائِش الضَّارَّة، فَيَجْعَلهُ اللَّه تَعَالَى عَسَلًا حُلْوًا وَشِفَاءً بمختلف ألوانه وأنواعه مِنْ الْأَحْمَر وَالْأَبْيَض وَالْأَصْفَر، وَالْجَامِد وَالسَّائِل.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ١٢٣) برقم (٥٦٨٤) كتاب الطب باب الدواء بالعسل. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٧٣٦) برقم (٢٢١٧) كتاب السلام باب التداوي بسقي العسل.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ١٢٣) برقم (٥٦٨١) كتاب الطب باب الشفاء في ثلاث.

(٣) شرح السنة للبغوي (١٢/ ١٤٨).

(٤) ينظر: تفسير القرطبي (١٠/ ١٣٦- ١٣٧)؛ المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥/ ٦١٠). المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، المؤلف: أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي (٥٧٨ - ٦٥٦ هـ)، حققه وعلق عليه وقدم له: محيي الدين ديب ميستو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بديوي - محمود إبراهيم بزال، الناشر: (دار ابن كثير، دمشق - بيروت)، (دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت)، الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.



ويتكوَّنُ العسل من سُكريَّات وأملاحٍ، وكثيرٍ من المعادن، وبعض الأحماض العضويَّة والفيتامينات، كما يحتوى على بعض الخمائر التي تجعَلُه غذاءً مهضومًا سهْل الامتصاص.

وعن العسل يقول الشاعر فأجاد وأحسن:-

غِـــذاءٌ شِفـــاءٌ كَـــذا بَلسَـــمٌ ... رَحيـــقٌ مِـــنَ الـــوردِ يغْـــدُو عَـــسَلْ
بِتَقْديـــرِ رَبِّـــي وَحِكْمَتِـــهِ ... هَـدَى النَّحْـل كَـي تسْـتنيرَ الـذُّلَلْ
لِيَمْتَـــصَّ هَـــذا الـــرَّحِيقَ غِـــذاءً ... لِيَغـــدُوَ شهْـــدًا وَيشفـــي العِلَـــلْ
هَـــدَى الكَـــوْنَ كُـــلَّ لخِدْمَتِـــنا ... كِرامًـــاَ عـــنِ الخَـــلْقِ مُنـــذُ الأزَلْ
لَكَ الحَمْدُ رَبّاهُ أكرَمْتَنـــا ... لك الكوْنُ طوْعًا بدونِ جَـــدَلْ[1]

كما أنَّ العسل له قدرةٌ عجيبةٌ على التعقيم، فهو مُضادٌّ للجراثيم ويقتُلها؛ ولذلك استَعمَله قُدَماء المصريين في تحنيط أجسادهم، واستعمَلَه الإغريق والرومان لحِفظ اللحوم لمُدد طويلة محتفظة بطَعْمِها الطبيعي.

وتحقيقًا لقول الله تعالى ﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾[2]، فإنَّ فوائد العسل الطبيعي هي:

١- العسل علاجٌ للأمراض الجلديَّة؛ فهو يشفي الجُروح والدَّمامل والخراريج العميقة.

٢- العسل علاجٌ للجهاز التنفُّسي؛ وذلك باستِنشاق محلولٍ من العسل والماء بتركيز ١٠ في المائة.

٣- العسل علاجٌ للزكام؛ وذلك باستِعمال العسَل مع اللبن الدافئ، أو مع عَصِير الليمون.

٤- العسل علاجٌ لأمراض الرِّئة؛ ولقد ثبَت علميًّا أنَّ تَعاطِي العسل له أكبرُ الأثر في سُرعة شِفاء الأمراض الصدريَّة كالسُّلِّ.

٥- العسل علاجٌ لأمراض القلب؛ فقد ثبت طِبِّيًّا أنَّ استعمال العسل لمدَّة شهرين للمَرضى الذين يَشكُون من عِلَلٍ خطيرة في القلب يُحدِث تحسُّنًا مَلحوظًا في حالتهم، ويُرجِع حالة الدَّم إلى الحالة العاديَّة، ويزيد من الهيموجلوبين وقُدرة الجهاز الدوري، والعسل يمنَح عضلة القلب أحسَن الظروف لتغذيتها، ويجبُ أنْ يدخُل العسل في الطعام اليومي لمرضى القلب.

٦- العسل علاجٌ لأمراض المعدة والأمعاء؛ لأنَّ العسل أحسن صَديقٍ للمعدة، فهو يُساعِد على الهضم، ويُقلِّل الحموضة لدى المرضى الذين يَشكُون من الحموضة العالية في المعدة، وقد أثبتت الأبحاث الطبِّيَّة أنَّ العسل مُهمٌّ للأشخاص الذين يَشكُون من قُرَحِ المعدة والاثني عشر، وفي هذه الحالة يُؤخَذ العسل في كوب ماء دافئ قبل الأكل بساعتين.

---

(١) لم أقف على قائلها، إلا أنها ذكرت في بعض المواقع على الشبكة. العسل الأصلي - غِذاءٌ شِفاءٌ كذا بَلسَمٌ رَحيقٌ مِنَ... | فيسبوك(facebook.com)

(٢) النحل: ٦٩.



كما أنَّ الأبحاث الحديثة أثبتَت أنَّ العسل له فوائد أخرى كثيرة؛ مثل: مُقاوَمة الشيخوخة وتأخير ظُهورها، ومُساعَدة الأطفال على التسنين، وعِلاج الصِّداع العصبي، ومُقاوَمة شلل الأطفال، ومُساعدة الحوامل أثناءَ الحمل، وفي حالات فقْر الدم، كما يدخُل في مُركَّباتٍ طِبِّيَّة عديدة.

وقد اكتشف العلم الحديث أنَّ النحل يُخرِج من بطونه سائلًا أبيض يُشبِه اللبن ويُسمَّى لبن النحل، وله خَواصُّ علاجيَّة عجيبةٌ؛ ولذلك سموه "إكسير الحياة"، وتُفرِزه غددٌ خاصَّة تُحوِّل الغذاء إلى ذلك اللبن.

والخلاصة: أن العسل من أقوى الأسباب الماديَّة للشفاء (وليس دواء فقط)، لأنَّ مرجعيته الوحي من القرآن العظيم والسنة الصحيحة، ويقبله العقل السليم. وصدق ابن مسعود- رضي الله عنه- حين قال: إِنَّ العَسَل فِيهِ شِفَاء من كل دَاء، وَالقُرْآن شِفَاء لما فِي الصُّدُور[١].

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٢٦) برقم (٣٠٠٢٠). الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، المؤلف: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، المحقق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد – الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩هـ.



٨ ربيع الآخر
اتَّقُوا النَّار ولو بِشقِّ تمرة

عَنْ عَدِيِّ بنِ حاتمٍ- رَضْيَ اللهُ عَنْه- قَالَ: سَمِعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولُ:" ما مِنْكم مِنْ أحدٍ إلَّا سُيكلِّمُه ربُّه ليس بينه وبينه ترْجُمان؛ فينظرُ أيمنَ منه فلا يرَى إلَّا ما قدَّم، وينظرُ أشأم منه فلا يرَى إلَّا ما قدَّم، وينظرُ بينَ يديهِ فلا يرَى إلَّا النَّار تلقاءَ وجهِهِ، فاتَّقُوا النَّار ولو بشقِّ تمرةٍ، فمَنْ لم يجِدْ فبكلِمةٍ طيِّبةٍ". متفق عليه[١].

ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم النار، واستعاذ بالله منها، ثمّ أعرض بوجهه ثلاث مرَّاتٍ، علمًا بأنَّه كان دائم التحذير لأمَّته من النار؛ شفقةً عليهم، ورحمةً بهم، وذلك من خلال حَثِّهم على أداء العبادات والطاعات التي تَقيهم منها؛ حيث حَثَّهم على البذل من المال، والأخلاق الحسنة التي تَقي من النار؛ ولو كانت يسيرةً قليلةً، كما وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم القليلَ بنصف التمرة، ودلَّ الحديث النبويُّ على أنَّ الكلام الطيِّب النافع من أفعال الخير التي يُؤدِّيها المسلم؛ إذ جعله رسول الله صلى الله عليه وسلم كالتصدُّق بالمال، ومشتركًا معه في تحقيق الأثر في النفس؛ فهما يُدخِلان السرور إليها، وأمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالتقوى، والتي يُراد بها: أداء الأعمال الصالحة، واجتناب الأعمال التي ورد النهي عنها، ولا بدَّ من ذلك في الأعمال كلِّها؛ سواءً كانت عظيمةً أم لا.

ويَحمل الحديث النبوي تأكيدًا لما دلَّ عليه قول الله سبحانه: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾[٢]، في الحثِّ والترغيب في أداء الأعمال الصالحة، وعدم التقليل من شأنها، وبذلك تحصل الوقاية للعبد من النار.

وفي ذلك يقول ابن حجر العسقلاني- رحمه الله-: " وفي الحديث الحثُّ على الصدقة بما قلَّ وبما جلَّ، وأن لا يحتقر ما يتصدَّق به، وأنَّ اليسير من الصدقة يستر المتصدِّق من النار"[٣]، وبذلك يعتاد العبد على الصدقة دون النظر إلى قيمتها.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ١٤٨) برقم (٧٥١٢) كتاب التوحيد باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧٠٣) برقم (١٠١٦) كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار.

(٢) الزلزلة: ٧، ٨.

(٣) فتح الباري لابن حجر (٣/ ٢٨٤). فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.



قال العلَّامةُ ابنُ عثيمينَ- رحمه الله-: هذا الحديث في بيانِ شيءٍ من طرق الخيرات، لأنَّ طرق الخيرات - ولله الحمد- كثيرة، شرعها الله لعباده ليصلوا بها إلى غاية المقاصد، فمن ذلك الصدقة، فإنَّ الصدقة كما صحَّ عن النبي صلى الله عليه وسلم:" تُطفئُ الخطيئةَ كما يُطفِئُ الماءُ النَّارَ"(١). يعني كما لو أنَّك صببت ماءً على النار فانطفأت، فكذلك الصدقة تُطفئ الخطيئة(٢).

ولقد أوجب الله سبحانه وتعالى علينا اتقاء النار فقد قال في كتابه المبارك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾(٣)، وقال تعالى أيضًا: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾(٤)، ورحمةً من الله على العباد أنَّه ذكر الأسباب المؤدِّية إلى النار وذلك للبُعد عنها، وذكر الأسباب التي تقي من النار لكي نتبعها فنفوز بالجنة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾(٥)، وهذا يدلُّ على عدْل الله سبحانه وتعالى؛ حيث إنَّه أنزل الكتاب وقام بإرسال الرسل؛ بالإضافة إلى خَلْقه للجنة والنار، وذلك ليقوم العباد بالاجتهاد لمعرفة سبل الهداية للجنة والوقاية من النار، وتُعتبر النجاة من النار من أكبر وأعظم منن الله علينا، ويشعر بذلك أهل الجنة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾(٦)، ولهذا يجب على كل مسلم أن يكون مُلمًّا بأسباب الوقاية من النار وكيفيه اتِّقائها.

ومن أسباب النجاة من النار: أداء الأوامر والواجبات، والانتهاء عن النواهي والمحرَّمات، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ

(١) رواه الإمام أحمد في مسنده (٤٢٥/٢٣) برقم (١٥٢٨٤). والترمذي في جامعه (٥١٢/٢) برقم (٦١٤) أبواب السفر باب ما ذكر في فضل الصلاة. والنسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٢١٤) برقم (١١٣٣٠) كتاب التفسير، قوله تعالى: {تتجافى جنوبهم عن المضاجع} [السجدة: ١٦]، وقوله تعالى: {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين} [السجدة: ١٧]. وابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٠٨) برقم (٤٢١٠) كتاب الزهد باب الحسد. والحديث صححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٩١٣).

(٢) شرح رياض الصالحين (٢/ ٢٠١).

(٣) التحريم: ٦.

(٤) آل عمران: ١٣١.

(٥) التوبة: ١١٥.

(٦) الطور: ٢٥-٢٧.

خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[1]، وقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم أيضًا:" كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن أَبَى، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ؛ وَمَن يَأْبَى؟ قالَ: مَن أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن عَصَانِي فقَدْ أَبَى" رواه البخاري[2].

وهناك العديد من الأعمال التي تُحرِّم النار على العبد وتُنجّيه، منها:

- الخوف من الله تعالى والخشية منه، قال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾[3] ، كما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم :" عَينانِ لا تَمَسَّهما النَّارُ: عينٌ بكت من خشيةِ اللهِ، وعينٌ باتت تحرسُ في سبيل اللهِ". رواه الترمذي[4].
- اللجوء إلى الله تعالى وطلب النجاة من النار، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[5].
- التحلّي بالصبر على فَقْد الولد، فقد ورد عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبيّ- صلى الله عليه وسلم أنَّه قال:" لا يَمُوتُ لأحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ ثَلاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ تَمَسُّهُ النَّارُ، إلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ". متفق عليه[6].
- الالتزام بأداء الصلاة والمداومة عليها، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم :" تَأْكُلُ النَّارُ ابْنَ آدَمَ إلَّا أثَرَ السُّجُودِ، حَرَّمَ اللَّهُ علَى النَّارِ أنْ تَأْكُلَ أثَرَ السُّجُودِ". رواه البخاري ومسلم[7].

---

(١) النساء: ١٤،١٣.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ٩٢) برقم (٧٢٨٠) كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(٣) الرحمن: ٤٦.

(٤) رواه الترمذي في جامعه (١٧٥/٤) برقم (١٦٣٩) أبواب السفر باب ما جاء في فضل اللحرس في سبيل الله. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٤/ ١٣٩).

(٥) الفرقان: ٦٥.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٣٤) برقم (٦٦٥٦) كتاب الأيمان والنذور باب قول الله تعالى: {وأقسموا بالله جهد أيمانهم} [الأنعام: ١٠٩]. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٢٨) برقم (٢٦٣٢) كتاب البر والصلة والآداب باب فضل من يموت له ولد فيحتسبه.

(٧) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ١٢٨) برقم (٧٤٣٧) كتاب التوحيد باب قول الله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} [القيامة: ٢٣]. ومسلم في صحيحه (١/ ١٦٣) برقم (١٨٢) كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية.



- توحيد الله تعالى بإخلاصٍ ويقينٍ، فعن عبادة بن الصامت- رضي الله عنه-: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ- صلى الله عليه وسلم يقولُ:" مَن شَهِدَ أنْ لَا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللهِ؛ حَرَّمَ اللَّهُ عليه النَّارَ". رواه مسلم[١].
- تحقُّق محبَّة الله في القلب، ويمكن تحقيق محبَّة الله بالعديد من الأسباب، يُذكر منها: تلاوة القرآن الكريم، اتِّباع النبيّ محمدٍ صلى الله عليه وسلم قولًا وفعلًا وخُلُقًا، الحرص على أداء النوافل من العبادات؛ إذ إنَّ أداء الفرائض سببٌ لنَيل محبَّة العبد لله، أمَّا النوافل فسببٌ في تحقُّق مَحبَّة الله للعبد، يقول الله تعالى في الحديث القدسيّ:" وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ". رواه البخاري[٢]، الزُّهد في الحياة الدنيا، والسعي والعمل للحياة الآخرة، التوكُّل والاعتماد على الله سبحانه في الأمور كلِّها، مع الحرص على الأخذ بالأسباب وعدم إهمالها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٣].

الخلاصة: أنَّه ممَّا يُستفاد من الحديث الشريف:

- الحضُّ على الزيادة من صالح العمل، والابتعاد عن سيِّئه، وأنَّ الصدقة حجاب من النار، ولو كانت قليلة.
- كثرة طرق الخيرات التي شرعها الله لعباده ليصلوا بها إلى غاية المقاصد.
- الكلمة الطيبة تشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكلَّ ما يتقرَّب به الإنسان إلى ربِّه عزَّ وجلَّ من القول.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥٧) برقم (٢٩) كتاب الإيمان باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٥) برقم (٦٥٠٢) كتاب الرقاق باب التواضع.

(٣) آل عمران: ١٥٩.

٩ ربيع الآخر

لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا

العمل اليسير من المعروف قد يكون كبيرًا عند الله عزَّ وجلَّ، وذلك بحسب ما قام بالعمل أو العامل من الأحوال، فلربما عظُم العمل بسبب النية الصالحة؛ كما قال عبد الله بن المبارك- رحمه الله تعالى-: " رُبَّ عملٍ صغيرٍ تُعظِّمه النية، ورُبَّ عمل كبير تُصغِّره النية"[(١)]، أو لأنَّ ذلك غاية ما يستطيعه العامل، أو لأنَّه آثر به مع حاجته، ولربما كان سبب التعظيم ما قارنه من شدَّة حال العمل، كما لو كان العمل متعلِّقًا بشدَّة حاجة الشخص، أو موضع حاجة، أو بسبب قرابة محتاج ونحو ذلك؛ فإنَّ العمل في مثل هذه الأحوال يتضاعف ويعظم أجره عند الله عزَّ وجلَّ؛ قال الله تعالى: ﴿فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ۝١٤ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ۝١٥ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ﴾[(٢)]. وقال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾[(٣)].

قال الشيخ السعدي في تفسيره: وهذا شامل عامٌّ للخير والشرِّ كلِّه، لأنَّه إذا رأى مثقال الذرة التي هي أحقر الأشياء وجوزي عليها، فما فوق ذلك من باب أولى وأحرى، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗا﴾[(٤)]، ﴿وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗا﴾[(٥)]، وهذه الآية فيها غاية الترغيب في فعل الخير ولو قليلًا والترهيب من فعل فعل الشرِّ ولو حقيرًا[(٦)].

فلذلك ينبغي للمسلم أن يحرص على فعل المعروف بجميع أنواعه ولا يحتقر منه شيئًا، فلربما كانت نجاته في عمل يسير؛ فعن عدي بن حاتم- رضي الله عنه- أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال:" اتقوا النار ولو بشق تمرة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة" متفق عليه[(٧)].

---

(١) ذكره ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١/ ٧١). جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط – إبراهيم باجس، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.

(٢) البلد: ١١- ١٦.

(٣) الزلزلة: ٧، ٨.

(٤) آل عمران: ٣٠.

(٥) الكهف: ٤٩.

(٦) ينظر: تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٣٢).

(٧) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ١٤٨) برقم (٧٥١٢) كتاب التوحيد باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧٠٣) برقم (١٠١٦) كتاب الزكاة باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة أو كلمة طيبة وأنها حجاب من النار.



وعن جَابِرِ بْنِ سُلَيْمٍ الْهُجَيْمِيِّ- رضي الله عنه- قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ- صلى الله عليه وسلم- وَهُوَ مُحْتَبٍ بِبُرْدَةٍ لَهُ قَدْ تَنَاثَرَ هُدْبُهَا عَلَى قَدَمِهِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ؛ أَوْصِنِي قَالَ:" اتَّقِ اللَّهَ، وَلَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ المُسْتَسْقِي، وَلَوْ أَنْ تُكَلِّمَ أَخَاكَ وَوَجْهُكَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ". رواه النسائي(١).

ولا أدلَّ على ذلك من قِصَّة المرْأَةِ السَّوْدَاءِ، الَّتِي كَانَتْ تَقُمُّ وَتُنَظِّفُ الْمَسْجِدَ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فهي امْرَأَةٌ صَغُرَ أَمْرُهَا فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، لَكِنَّ اللَّهَ تعالى خَلَّدَ ذِكْرَهَا بَعْدَ مَوْتِهَا، لَا لِسَابِقَتِهَا فِي الْإِسْلَامِ، وَلَا لِأَنَّهَا قَدَّمَتْ عَمَلًا جَلِيلًا فِي أَعْيُنِ النَّاسِ، وَإِنَّمَا بَقِيَ ذِكْرُهَا لِأَنَّهَا كَانَتْ تَقُمُّ الْمَسْجِدَ، وَتَقُومُ عَلَى خِدْمَتِهِ، وَبَقِيَتْ عَلَى هَذَا حَتَّى مَاتَتْ فِي لَيْلَةٍ مِنَ اللَّيَالِي، فَبَادَرُوا بِتَجْهِيزِهَا وَدَفْنِهَا فِي اللَّيْلِ، ومَضَتْ أَيَّامٌ وَرَسُولُ اللَّهِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَا يَرَى هَذِهِ الْمَرْأَةَ، فَسَأَلَ عَنْهَا فَأُخْبِرَ- عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بِوَفَاتِهَا فَقَالَ:" أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي- فَكَأَنَّ النَّاسَ صَغَّرُوا أَمْرَهَا- ثُمَّ قَالَ: دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهَا؟ فَدَلُّوهُ، فَوَقَفَ عَلَى قَبْرِهَا، وَصَلَّى عَلَيْهَا". متفق عليه(٢).

ووَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" تَلَقَّتِ الْمَلَائِكَةُ رُوحَ رَجُلٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَقَالُوا: أَعَمِلْتَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا؟ قَالَ: لَا، قَالُوا: تَذَكَّرْ، قَالَ: كُنْتُ أُدَايِنُ النَّاسَ فَآمُرُ فِتْيَانِي أَنْ يُنْظِرُوا المُعْسِرَ، وَيَتَجَوَّزُوا عَنِ المُوسِرِ، قَالَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: تَجَوَّزُوا عَنْه"(٣).

وبالْعَمَلِ الْيَسِيرِ بُشِّرَ بِلَالُ بْنُ رَبَاحٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- بِالْجَنَّةِ، كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قال لِبِلَالٍ عِنْدَ صَلَاةِ الْفَجْرِ:" يَا بِلَالُ؛ حَدِّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ فِي الْإِسْلَامِ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طَهُورًا فِي سَاعَةِ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أُصَلِّيَ". متفق عليه(٤).

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣٤/ ٢٣٤) برقم (٢٠٦٣٢). والنسائي في السنن الكبرى (٨/ ٤٣١) برقم (٩٦١١) كتاب الزينة الاختلاف على أبي إسحاق فيه. والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٣٩٩).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٩) برقم (٤٥٨) كتاب الصلاة باب كنس المسجد والتقاط الخرق والقذى والعيدان. ومسلم في صحيحه (٢/ ٦٥٩) برقم (١٠١٦) كتاب الجنائز باب الصلاة على القبر.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٥٧) برقم (٢٠٧٧) كتاب البيوع باب من أنظر معسرًا. ومسلم في صحيحه (٣/ ١١٩٤) برقم (١٥٦٠) كتاب المساقاة باب فضل إنظار المعسر.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٣) برقم (١١٤٩) كتاب التهجد باب فضل الطهور بالليل والنهار وفضل الصلاة بعد الوضوء بالليل والنهار. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٩١٠) برقم (٢٤٥٨) كتاب الفضائل باب من فضائل بلال رضي الله عنه.



فَهَذَا عَمَلٌ يَسِيرٌ، قَدْ لَا يَنْتَبِهُ لَهُ الْكَثِيرُ مِنَّا، كَانَ عِنْدَ بِلَالٍ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَرْجَى عَمَلٍ نَالَ بِهِ بِشَارَةَ الْحَبِيبِ- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لَهُ بِالْجَنَّةِ.

فالخير مهما قلَّ أو صغُر فإنَّه محبوبٌ لله، وإذا تقبَّله الله فهو عند الله عظيم، فلا تحتقرْ أيَّ عمل، فقد تدخل الجنة بعمل يسير، أو تؤثر بالناس بعمل قليل، والأمثلة في الشرع كثيرة منها:

- الرجل الذي سقى كلبًا فشكر الله عمله وغفر له، وقال النبي صلى الله عليه وسلم:" في كل كبد رطبة أجر" متفق عليه(١).
- المرأة الزانية من بني إسرائيل التي سقت كلبًا فغفر الله لها، وكانت المرأة من البغايا الموسات، والحديث متفق عليه(٢).
- وفي صحيح مسلم يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" رأيتُ رجلًا يتقلَّب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين"(٣).
- وفي الصحيحين يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" إنَّ الله لَيُربِّي صدقة أحدكم كما يُربِّي أحدكم فلُوَّه" متفق عليه(٤). كما جاء أيضًا أنَّه " سبق درهم مائة ألف درهم" رواه النسائي(٥).

وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾(٦)، فقدَّم النفقة الصغيرة لئلا تعظم ويعجب بها صاحبها.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١١١) برقم (٢٣٦٣) كتاب التهجد باب فضل سقي الماء. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٧٦١) برقم (٢٢٤٤) كتاب السلام باب فضل ساقي البهائم المحترمة.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٣) برقم (٣٤٦٧) كتاب الأحاديث الأنبياء باب حديث الغار. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٧٦١) برقم (٢٢٤٥) كتاب السلام باب فضل ساقي البهائم المحترمة.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٢١) برقم (١٩١٤) كتاب البر والصلة والآداب باب النهي عن الإشارة بالسلام إلى مسلم.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١٠٨) برقم (١٤١٠) كتاب الزكاة باب الصدقة من كسب طيب لقوله: {ويربي الصدقات، والله لا يحب كل كفار أثيم، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون} [البقرة: ٢٧٧]. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧٠٢) برقم (١٠١٤) كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب.

(٥) رواه النسائي في السنن الكبرى (٣/ ٤٧) برقم (٢٣١٨) كتاب الزكاة صدقة جهد المقل. والحديث حسنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٦/ ١٧١). صحيح وضعيف سنن النسائي، المؤلف : محمد ناصر الدين الألباني، مصدر الكتاب : برنامج منظومة التحقيقات الحديثية – المجاني – من إنتاج مركز نور الإسلام لأبحاث القرآن والسنة بالإسكندرية.

(٦) التوبة: ١٢١.



فالعبرة بحسن العمل والإخلاص والإتقان؛ وإن قلَّ العمل مثل صلاة ركعتي الطواف وعدم الإطالة فيهما والاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم أفضل من عشر ركعات طويلة بعد الطواف، و" ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها ". رواه مسلم[١]، وأفضل من ركعات كثيرة سواها.

- بل إن إمساك الإنسان الشر عن الناس يعتبر صدقة منه على نفسه كما جاء في الحديث المتفق عليه[٢].

و" من دل على خير فله مثل أجر فاعله" رواه مسلم[٣]، و" مَن سَنَّ في الإسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَعُمِلَ بهَا بَعْدَهُ؛ كُتِبَ له مِثْلُ أَجْرِ مَن عَمِلَ بهَا، وَلَا يَنْقُصُ مِن أُجُورِهِمْ شيءٌ ". رواه مسلم[٤].

- والأذكار الشرعية منها كلمات يسيرة يبلغ بها الإنسان فضلًا كبيرًا، مثل:" كلمتانِ خفيفتانِ على اللسانِ، ثقيلتانِ في الميزانِ، حَبيبَتانِ إلى الرحمنِ: سُبحانَ اللَّه وبحمدِهِ سُبحانَ اللَّهِ العظيمِ ". متفق عليه[٥]، و"سيد الاستغفار ...". رواه البخاري[٦]. و " سبحان الله والحمد لله ولا إله إلَّا الله والله أكبر أحب إلي ممَّا طلعت عليه الشمس". رواه مسلم[٧].

ويأتي رجلٌ إلى النبي- صلَّى الله عليه وسلَّم- قد امتلأ نشاطًا، وتحرَّكت همَّته للمسابقة في أبواب الأعمال الصالحات، فيسأَل النبيَّ- صلَّى الله عليه وسلَّم- عن المعروف فيأتيه الجواب:" لا تحقِرَنَّ من المعروف شيئًا ولو أنْ تُعطِي صلة الحبل، ولو أنْ تُعطِي شِسعَ النَّعل، ولو أنْ تَنْزِع من دَلوِك في إناء المُستَسقِي، ولو أنْ تُنحِّي الشيءَ من طريق الناس يُؤذِيهم، ولو أنْ تَلقَى أخاك ووجهُك إليه مُنطَلِق، ولو أنْ تلقى أخاكَ فتُسلِّم عليه، ولو أنْ تُؤنِس الوَحشان في الأرض". رواه أحمد[٨].

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٥٠١) برقم (٧٢٥) كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب ركعتي سنة الفجر، والحث عليهما وتخفيفهما، والمحافظة عليهما، وبيان ما يستحب أن يقرأ فيهما.

(٢) ولفظه: «تدع الناس من الشر، فإنها صدقة تصدق بها على نفسك» رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٤٤) برقم (٢٥١٨) كتاب العتق باب أي الرقاب أفضل. ومسلم في صحيحه (١/ ٨٩) برقم (٨٤) كتاب الإيمان باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥٠٦) برقم (١٨٩٣) كتاب الإمارة باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، وخلافته في أهله بخير.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٩) برقم (١٠١٧) كتاب العلم باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٦) برقم (٦٤٠٦) كتاب الدعوات باب فضل التسبيح. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٢) برقم (٢٦٩٤) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٦٧) برقم (٦٣٠٦) كتاب الدعوات باب أفضل الاستغفار.

(٧) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٧٢) برقم (٢٦٩٥) كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

(٨) رواه أحمد في مسنده (٢٥/ ٣٠٩) برقم (١٥٩٥٥). وأبو داود في سننه (٤/ ٥٦) برقم (٤٠٨٤) كتاب اللباس باب ما جاء في إسبال الإزار. والترمذي في جامعه (٥/ ٧٢) برقم (٢٧٢١) أبواب الاستئذان والآداب باب ما جاء في كراهية أن يقول عليك السلام مبتدئًا. والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٣/ ٣٩٣).



والخلاصة: أنه ينبغي أن يفعل المسلم الخير حتى ولو صغُر في عينه، وليجعل شعاره في صبحه ومسائه:" لا تحقرنَّ من المعروف شيئًا "، فلا تبخَل على نفسك ببَذْل ابتسامة، أو دفع هديَّة، أو رفع أذيَّة، لا تستَقلِ ثواب الشَّفاعة الحسنة، وقَضاء الحوائج، وحل المشاكل، لا تَزهَد في قُربات وطاعات ولو كانت يسيرة؛ كمُواسَاة مكلوم، وتعزية مُصاب، وتشييع جنازَة، وعِيادَة مريض، وإنظار مُعسِر، وإدخال البهجة في النُّفوس، فلا تدري، فلعلَّ ذلك العمل- وإنْ كان صغيرًا- تكون به ومعه سعادَتُك ونجاتُك في أخراك، وبقاء ذكرك الحسن في دنياك.



١٠ ربيع الآخر

خير جليس (القراءة)

كثير منا مَن يبحث عن صديق ذي أخلاق طيِّبة، يستفيد منه وينهل من بحر علمه، ولكل باحث عن مثل هذا الصديق يجده في مكان واحد وهو المكتبة، والصديق هو الكتاب، لن يجد الإنسان جليسًا يجالسه ويقضي معه أجمل الأوقات أفضل من الكتاب، فإنَّه كما قال المتنبي:

أعزُّ مكانٍ في الدُّنى سَرجُ سابحٍ *** وخيرُ جليسٍ في الزمانِ كتابُ(١)

لذلك يجب علينا أن نهتم بالقراءة ونجعلها منهاج حياتنا، فلا تجعل يومًا يمرُّ عليك دون قراءة، وتخيّر الكتاب الجيِّد، لأنَّه مثل الصديق الجيِّد، فعليك أن تعتني باختيار الكتب التي تريد أن تقرأها، حتى تبني أفكارًا إيجابيَّة تساعدك علي إنارة طريقك في الحياة، والتغلُّب على المشاكل، فتختار الكتب المفيدة التي تبني ولا تهدم، لأنَّ بالقراءة تنهض الأمم وتبنى الحضارات، كما عليك أن تبتعد عن الكتب الهدَّامة، التي تحمل أفكارًا هادمة؛ فمثل هذه الكتب تهدم ولا تبني.

قيل لابن المبارك- رحمه الله-: يا أبا عبد الرحمن؛ لو خرجت فجلست مع أصحابك، قال: إني إذا كنت في المنزل جالست أصحاب رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، يعني قراءة الكتب(٢).

إذن فكيف نقرأ؟ هناك ضوابط عديدة للقراءة المفيدة، نذكر منها:

- الاختيار الجيد للكتب: وذلك من خلال اختيار المؤلف والكتاب المناسبَينِ.
- التدرُّج في القراءة: فالمبتدئ لا ينبغي أن ينشغل بالمجلدات والكتب الكبار، بل ينبغي له أن يتدرَّج من الأسهل إلى الصعب إلى الأصعب، وإذا أدركت أنَّك تفهم ما في الكتاب وتستوعبه فاقرأه، ثم انتقل إلى ما هو أعلى منه، وحين تسلك هذا المسلك وتتدرَّج في القراءة فإنَّك ربما لا تجد تلك الصعوبة التي يجدها البعض حين يقرأ ما لا يناسبه؛ فيصاب بصدمات عنيفة قد تكون عائقًا له عن القراءة. جاء في تفسير قوله تعالى: { كُونُوا رَبَّانِيِّينَ}: "الرباني هُوَ الَّذِي رُبِّي بصغار الْعلم حَتَّى بلغ كباره"(٣).

---

(١) ينظر: الحماسة المغربية (١/ ٧٠٩). الحماسة المغربية = مختصر كتاب صفوة الأدب ونخبة ديوان العرب، المؤلف: أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجرّاوي التادلي (المتوفى: ٦٠٩هـ)، المحقق: محمد رضوان الداية، الناشر: دار الفكر المعاصر – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩١م.

(٢) ينظر: تقييد العلم للخطيب البغدادي (ص: ١٢٦). تقييد العلم للخطيب البغدادي، المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، الناشر: إحياء السنة النبوية – بيروت.

(٣) تفسير السمعاني (١/ ٣٣٦).

- التنوُّع في القراءة: فلا يسوغ أن تقتصر قراءتنا على فنٍّ معيَّن أو كاتب معيَّن أو موضوع مُحدَّد؛ فتقرأ في التفسير والحديث والفقه والعقيدة وعلوم الحديث واللغة والأدب والتراجم والقصص وغيرها من الكتب المفيدة.
- الجلسة الصحيحة تُعين على القراءة: لأن الجلسة أحيانًا قد تكون سببًا للنوم، وقد تكون سببًا لتشتيت الذهن، فاختر لنفسك الجلسة التي تساعدك على التركيز.
- التسجيل والتلخيص: فقد تأتيك فوائد فتستوعبها وتحفظها، لكن حين لا تسجلها قد تنساها.
- اختيار الوقت المناسب للقراءة: حيث يكون الإنسان حاضر الذهن، مرتاح البال.
- القراءة النقدية والاعتدال فيها، وألا تكون مجرد حاطب ليل.

مُعوِّقات القراءة: هناك مُعوِّقات قد تُعيق عن القراءة، يمكن أن نذكر منها:

أولًا: عدم إدراك أهمِّيَّتها: فمعظمنا لا يدرك أهمِّيَّة القراءة وحاجتنا إليها، بل وضرورتها لنا، ولو أنَّا أدركنا أن القراءة لنا كالماء للسمك، وكالهواء للطير؛ لاجتزنا كثيرًا من العقبات.

ثانيًا: الكسل ودنو الهمَّة: فالقراءة تحتاج من المرء أن يُفرغ جزءًا من وقته، وأن يمسك كتابًا ولا يفارقه، ويجمع فكره حوله، وهذا أمر قد لا تُعيننا أنفسنا الضعيفة عليه.

ثالثًا: عدم العناية بالوقت: ولهذا لا نجد وقتًا نقرأ فيه، وليس السبب في الحقيقة هو ضيق الوقت، بل عدم اعتنائنا به، ولعل خير وسيلة تُعيننا على ذلك هي أن نُخصِّص وقتًا كل يوم نقرأ فيه، ونعتبره واجبًا يوميًّا علينا، ينبغي ألَّا تغيب شمس اليوم إلَّا وقد أدَّينا هذا الواجب وقضيناه.

وعن فوائد القراءة يقول المُفكِّر الكبير عباس محمود العقاد: القراءة وحدها هي التي تُعطي الإنسان الواحد أكثر من حياة واحدة، لأنَّها تزيد الحياة عمقًا(١). وقال أيضًا: القراءة تضيف إلى عمر الإنسان أعمارًا أخرى(٢).

فهي من أكثر مصادر العلم والمعرفة، وأهم وسائل نقل أفكار العقل البشرى، وهى الصفة التي تُميِّز الشعوب التي تسعى للرُّقي والتقدُّم، ووسيلتها في ذلك الكتاب، فالإنسان حينما يريد أن يدرس ويتعلَّم في مجال من مجالات الحياة المتنوَّعة والكثيرة؛ فإنَّه يستخدم الكتاب لأنَّه سجل نعرف مِن

---

(١) ذكرت هذه المقولة في عدد من المواقع ولم أقف عليها في كتاب له. ينظر: عباس محمود العقاد - لست أهوى القراءة لأكتب ، ولا أهوى القراءة لأزداد عمراً... - حكم(hekams.com)

(٢) ينظر: القراءة وأهميتها للفرد والمجتمع(alukah.net)



خلاله ما كتبه المؤرخون، وكذلك العالم والمدرِّس يعتمد على الكتاب في تدريسه للطَّلبة وتعليمهم المناهج المختلفة، فالكتاب هو محور العمليَّة التَّعليميَّة والتَّربويَّة وأداتها الرَّئيسة.

كما أنَّ الكتاب يمكن أن يكون وسيلة سياحيَّة تُمكِّن القارئ من التعرُّف على البلدان والمجتمعات، فهناك الكثير من كتب الآثار التي تذهب بالقارئ إلى بلدان بعيدة؛ ما كان يُمكن للإنسان التعرُّف عليها لولا الكتاب، ومثال على ذلك الرحلات التي كان يقوم بها ابن بطوطة ودوَّنها في كتابه الشهير" تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"، والكتاب يعتبر بمثابة أداة ترفيه عن النفس، ومثال على ذلك كتب النكت والقصص المضحكة عن البخلاء والأغبياء وغيرهم ككتاب البخلاء للجاحظ ، وكتاب الأذكياء لابن الجوزي، وكذلك كتب الألغاز والتشويق التي تعمل على استثارة العقل وتحفيزه للتفكير في الحلول، وكتب الأطفال التي تُزوِّدهم بالمعلومات عن الحيوانات والطيور وما شابه ذلك.

ومن فوائد القراءة:

- القضاء على الجهل والأمِّيَّة والتخلُّف ومحاربة الشعوذة والخزعبلات بالفكر والعقل المستنير.
- تُكسب القارئ خبرات وتجارب السابقين وتدفع بالقارئ إلى أخذ العِبَر.
- تملأ وقت الفراغ وتُمرِّن العقل على الفهم والإدراك والاستيعاب والتحليل والتصوُّر والتنبُّؤ بالنتائج.
- تُدخِل المتعة والسرور على النفس، وتقضي على التوتر والملل، وخاصَّة عند قراءة الروايات والكتب المُفضَّلة لدى القارئ.
- تُقوِّي الذاكرة وتحارب الخَرَف وتُحسِّن المزاج.
- تُقوِّي اللغة لدى القارئ، وتُمِدُّه بالقدرة على الكتابة والتعبير بشكل صحيح، وبكمٍّ هائل من المترادفات والكلمات والمصطلحات والتعابير.
- القراءة تزوِّد القارئ بأفكار جديدة وطرق متنوِّعة لحل المشاكل وتحقيق الأهداف، فهي أساسيَّة لمواكبة متطلبات حياتنا المعاصرة.
- العزوف عن القراءة خصوصًا في الجانب الديني قد يجعل البعض يقع فريسة أفكار هدَّامة.

الخلاصة: لقد كانت أول آية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [(١)]، وهذا دليل على فضل القراءة وأهمِّيَّتها وعظم منزلتها، ومن الجميل أن تحرص على اقتناء الكتب

---

(١) العلق: ١.



وقراءتها، ومن المهمِّ جدًّا أن تختار النافع منها، الذي يغرس في النفوس والقلوب حبَّ الدِّين والوطن والقيم الرفيعة، المُتمثِّلة في الوسطيَّة والاعتدال وقيم الخير والأخلاق الفاضلة والمبادئ الرصينة والسلوكيَّات السويَّة، حتى تكون القراءة إيجابيَّة هادفة، تبني ولا تهدم.

وأخيرًا؛ قسِّم قراءتك بين ٥٠ % في مجال تخصُّصك، و ٥٠ % في مجالات أخرى مهمَّة.

وصدق أمير الشعراء أحمد شوقي عندما قال:

أنا مَن بدَّل بالكتب الصحابا ... لمْ أجدْ لي وافيًا إلَّا الكتابا

صاحبٌ إنْ عبتَه أو لم تعِبْ ... ليس بالواجدِ للصاحبِ عابا

كلَّما أخلقتُه جدَّدني ... وكساني من حُلَى الفضلِ

صحبةٌ لمْ أشكُ منها ريبةً ... ثيابا ووِدادٌ لمْ يُكلفني عِتابا[١]

(١) ينظر: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (٩/ ٢٥، بترقيم الشاملة آليا).

١١ ربيع الآخر

لا تغضب

كثيرًا ما نشتكي في حياتنا من طائفة مُعيَّنة من الناس يتملَّكها الغضب ويتحكَّم في أفعالها وتصرُّفاتها، ويُعتبَر الغضب حالة تعبير عن مشاعر إنسانيَّة كامنة تجاه مواقف مُعيَّنة تستثير الإنسان وتُحفِّزه للقيام بردٍّ فعلٍ مُعيَّن يتَّسم بالشدَّة، وغالبًا ما يترافق مع الغضب أعراض جسدية مثل احمرار وجه الغاضب وارتفاع نبرة صوته، بحيث يعرف الناس ذلك منه فيقال: غضب فلان فبدا عليه ذلك.

وقد حذَّر الإسلامُ المسلمَ من الغضب، وحثَّه على الحلم وكظم الغيظ، وذلك لما للحلم من آثار حسنة على شخصيَّة الإنسان، ولما للغضب من إفرازات ونتائج سيِّئة عليه، فعن أبي هريرة- رضي الله عنه- أنَّ رجلًا قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني، قال " لا تغضب" فردَّد مرارًا، قال:" لا تغضب" رواه البخاري[١].

والغضب هو: انفعال أو تغيُّر يحصل عند غليان دم القلب؛ ليحصل عنه التشفِّي للصدر بإيذاء الغير. ويشمل التأثير الجسدي للغضب زيادة في معدل ضربات القلب وضغط الدم.

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يُكثر من دعاء:" اللهمَّ إنِّي أسألك كلمة الحق في الرضا والغضب". رواه أحمد[٢]، فإنَّ الغضب إذا اعترى العبد، فإنَّه قد يمنعه من قول الحق أو قبوله.

وقد شدَّد السلف الصالح- رضوان الله عليهم- في التحذير من هذا الخُلُق المشين، فهاهو عليُّ بن أبي طالب- رضي الله عنه- يقول:" أول الغضب جنون وآخره ندم، وربما كان العطب في الغضب"[٣].

وأُثر عن أحد الحكماء أنَّه قال لابنه:" يا بُنيَّ، لا يثبت العقل عند الغضب، كما لا تثبت روح الحي في التنانير المسجورة، فأقلُّ الناس غضبًا أعقلهم"[١].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٨) برقم (٦١١٦) كتاب الأدب باب الحذر من الغضب.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٠/ ٢٦٤) برقم (١٨٣٢٥). والنسائي، كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر (٣/٥٥). والحديث صححه الألباني كما في تحقيق الاحتجاج بالقدر لابن تيمية (ص: ٩٠). الاحتجاج بالقدر، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الرابعة – ١٤٠٤، تحقيق: تحقيق المحدث العلامة محمد ناصر الدين الألباني.

(٣) ذكره ابن مفلح عن علي رضي الله عنه، ينظر: الآداب الشرعية والمنح المرعية (١/ ١٨٣). الآداب الشرعية والمنح المرعية، المؤلف: محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٧٦٣هـ)، الناشر: عالم الكتب.

وقال آخر:" ما تكلمتُ في غضبي قط بما أندم عليه إذا رضيت"[٢].

ومن الصفات التي امتدح الله بها عباده المؤمنين في كتابه؛ ما جاء في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾[٣]، فهذه الآية تشير إلى أن الناس ينقسمون إلى ثلاثة مراتب: فمنهم من يكظم غيظه ويوقفه عند حدِّه، ومنهم من يعفو عمَّن أساء إليه، ومنهم من يرتقي به سموُّ خُلُقه إلى أن يُقابل إساءة الغير بالإحسان إليه.

وللغضب أسباب كثيرة منها:

- ضعف صلة المرء بالكتاب والسُّنَّة، وعدم الاطِّلاع على هدي الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الباب.
- قلَّة العقل وضيق التفكير، وفرق كبير بين العقلاء والمجانين، وبين الصغار والكبار، فمَن يثور لأتفه الأسباب وأحقر الأمور ففيه شبَهٌ بالأطفال والمجانين، والعقلاء يمتازون بالصبر والتحمُّل وطلب الآخرة وانتظار الثمرة.
- ظروف الحياة ومتاعبها ومُتطلَّباتها الكثيرة ممَّا يُسبِّب القلق والتوتر، وعلى قدر لهث الإنسان وراءها وطلبه لها؛ بقدر ما يحصل التكدير ويعظم الغضب.
- التكبُّر والغرور بمال أو جاه أو منصب أو شهادة، والمغرور سريع الغضب لا يتحمَّل أدنى زلَّة من الآخرين، بل إنَّه لا يسمع نصحًا ولا يقبل رأيًا.
- الشعور بالنقص قد يدفع المرء للغضب، لأنَّه يشعر بالقصور والضعف، فيُعوِّض ذلك بالغضب لئلَّا يكتشفه الناس.
- ومن أهم الأسباب التي تجلب الغضب؛ إثارة النعرات والعصبيَّات والقوميَّات والحزبيَّات والولاءات والانتماءات، فكل ذلك يدفع للانتقام والتعالي، ويشتدُّ الغضب ويعظم، وقد يقع هؤلاء في المهالك.
- وتختصُّ النساء بالغيرة الشديدة التي تجعل المرأة سريعة الغضب؛ فتنقلب حياتها إلى جحيم، وقد تُشرِك زوجها في هذا الأمر، فتكون سببًا لهدم بيتها وتفريق أسرتها.

---

(١) ينظر: إحياء علوم الدين (٣/ ١٦٦).

(٢) ينظر: الزهد لأحمد بن حنبل (ص: ٢٥٥). الزهد، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، وضع حواشيه: محمد عبد السلام شاهين، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٣) آل عمران: ١٣٤.



أما عن علاج الغضب فهناك أمور يُراعَى فعلُها عند الإحساس بالغضب: حيث جاءت الوصايا النبويَّة التي تحثُّ على عدم الانفعال، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم بعض الأمور التي تُساعد على ذلك، والتي يُستحبُّ فِعْلُها، نذكر بعضًا منها:

- الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم: فقد تشاجر رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدأ الغضب يفور منهما، فقال صلى الله عليه وسلم:" إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لو قالَهَا لَذَهَبَ هذَا عنْه: أَعُوذُ باللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ". متفق عليه [(١)].
- تغيير الموضع الذي هو فيه: جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" إذا غضِبَ أحَدُكم وهو قائمٌ فلْيَجلِسْ، فإنْ ذهَبَ عنه الغَضبُ وإلَّا فلْيَضطَجِعْ". رواه أبو داوود[(٢)].
- الوضوء: وإخماد غضب وثوران النفس بالماء، قال صلى الله عليه وسلم:" إنَّ الغضب من الشيطان، وإنَّ الشيطان خُلِق من النار، وإنَّما تُطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ". رواه أبو داوود[(٣)].
- التأسِّي بهديه صلى الله عليه وسلم في الغضب : فهو أسوتنا وقدوتنا، ومواقفه واضحة في أحاديث كثيرة، ومن أبرزها:

عن أنس- رضي الله عنه- قال : كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه بُرد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي صلى الله عليه وسلم (ما بين العنق والكتف) وقد أثَّرت بها حاشية البرد، ثم قال: يا محمد؛ مُرْ لي من مال الله الذي عندك، فالتفتُ إليه- صلى الله عليه وسلم فضحك، ثم أمر له بعطاء، متفق عليه[(٤)].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٢٨) برقم (٦١١٥) كتاب الأدب باب الحذر من الغضب. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠١٥) برقم (٢٦١٠) كتاب البر والصلة والآداب باب فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٥/ ٢٧٨) برقم (٢١٣٤٨). وأبو داود في سننه (٢٤٩/٤) برقم (٤٧٨٢) كتاب الأدب باب ما يقال عند الغضب والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١٠/ ٢٨٢).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٢٩/ ٥٠٥) برقم (١٧٩٨٥). وأبو داود في سننه (٢٤٩/٤) برقم (٤٧٨٤) كتاب الأدب باب ما يقال عند الغضب والحديث ضعفه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١٠/ ٢٨٤).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٩٤) برقم (٣١٤٩) كتاب فرض الخمس باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧٣٠) برقم (١٠٥٧) كتاب الزكاة باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة.



ومن التأسِّي بالنبي صلى الله عليه وسلم أن نجعل غضبنا لله، وإذا انتهكت محارم الله، وهذا هو الغضب المحمود، فقد غضب صلى الله عليه وسلم لما أخبروه عن الإمام الذي يُنفِّر الناس من الصلاة بطول قراءته، متفق عليه[١].

وغضب لما رأى في بيت عائشة- رضي الله عنها- سترًا فيه صور ذوات أرواح، رواه البخاري[٢].

وغضب لما كلمه أسامة بن زيد- رضي الله عنهما- في شأن المخزوميَّة التي سرقتْ، وقال له: أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟ متفق عليه[٣].

وغضب لما سُئل عن أشياء كرهها، وغير ذلك. فكان غضبه صلى الله عليه وسلم لله وفي الله.

والخلاصة: كن هادئًا؛ فالهدوء سمة من سمات النجاح، والهدوء تعبير عن شخصية قويَّة متماسكة، والهدوء عنوان لإنسان واعٍ مُتحضِّرٍ، والأمر فيما هو خلاف ذلك على العكس تمامًا؛ فإن ذلك الإنسان الذي يثور لأتفه الأسباب، ويهيج لأسخف الأمور، فإنَّه يعبر عن إنسان ضعيف الشخصية، ضعيف العقل، ضعيف الإرادة. تمامًا كالشجرة الضعيفة التي تُؤثِّر عليها أبسط هبَّة من الريح، أمَّا الإنسان القويُّ فكالشجرة القويَّة الممتدَّة الجذور في أعماق الأرض، حيث تزداد ثباتًا كلَّما عصفت الرياح بها.

واعلم أنَّ الغضب يُولِّد الغضب، أمَّا الهدوء فإنَّه يُطفئ الغضب، كما يُطفئ الماءُ النار، فكن هادئًا في تعاملك مع الآخرين، استخدم لباقتك مع المُسيئين إليك، تكلَّمْ بعبارات رزينة ووديَّة. فهذا هو أقصر طريق لكسب الآخرين، ونيل إعجابهم.

وفي هذا يقول العرجي الشاعر:

وإذا غضبتَ فكنْ وقورًا كاظمًا ... للغيظِ تُبصرُ ما تقولُ وتسمعُ
فكفَى به شـــرفًا تبصُّرُ ساعةٍ ... يرضَى بها عنك الإلهُ وتُرفعُ[١]

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٤٢) برقم (٧٠٢) كتاب الأذان باب تخفيف الإمام في القيام، وإتمام الركوع والسجود. ومسلم في صحيحه (١/ ٣٤٠) برقم (٤٦٦) كتاب الصلاة باب أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٦٣) برقم (٢١٠٥) كتاب البيوع باب التجارة فيما يكره لبسه للرجال والنساء. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٦٦٨) برقم (٢١٠٧) كتاب اللباس والزينة باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا صورة.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٥) برقم (٣٤٧٥) كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٣١٥) برقم (١٦٨٨) كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات باب قطع السارق الشريف وغيره، والنهي عن الشفاعة في الحدود.



١٢ ربيع الآخر

اتقوا الشبهات

عن أبي عبد الله النعمان بن بشير- رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" إنَّ الحلال بيّن وإنَّ الحرام بَيّن، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهنَّ كثير من الناسِ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومَن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يُوشك أن يقع فيه، ألا وإنَّ لكلِّ ملك حمى، ألا وإنَّ حمى الله محارمه، ألا وإنَّ في الجسد مضغة؛ إذا صلحت صلح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب" رواه البخاري ومسلم[٢].

هذا الحديث من الأحاديث الهامَّة التي عليها مدار الإسلام، حتى قال عنه الإمام النووي: أَجْمَعَ العلماء عَلَى عِظَمِ وَقْعِ هَذَا الْحَدِيثِ، وَكَثْرَةِ فَوَائِدِهِ، وَأَنَّهُ أَحَدُ الأَحَادِيثِ الَّتِي عَلَيْهَا مَدَارُ الإِسْلامِ، قَالَ جَمَاعَةٌ: هُوَ ثُلُثُ الإِسْلامِ، وَأَنَّ الإِسْلامَ يَدُورُ عَلَيْهِ، وَعَلَى حَدِيثِ:" الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ"[٣]، وَحَدِيثِ:" مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ المرء تركه ما لا يَعْنِيهُ"[٤][٥].

ونظم بعضهم هذه الأحاديث فقال:

عُمْـدَةُ الدِّينِ عِنْدَنا كَلِمَـاتٌ   أَرْبَـعٌ مِـنْ كَـلامِ خَـيْرِ الْبَرِيَّـهْ
اتَّقِ الشُّبُهَاتِ وَازْهَدْ وَدَعْ مَا   لَيْسَ يَعْنِيكَ وَاعْمَلَنَّ بِنِيَّهْ[٦]

---

(١) الأبيات ذكرها عدد من أهل العلم عن العرجي. ينظر: تفسير القرطبي (٤/ ٢٠٨).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٠) برقم (٥٢) كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٢١٩) برقم (١٥٩٩) كتاب المساقاة باب أخذ الحلال وترك الشبهات.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٦) برقم (١) بدء الوحي، كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٥١٥) برقم (١٩٠٧) كتاب الإمارة باب قوله صلى الله عليه وسلم: «إنما الأعمال بالنية»، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال.

(٤) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٢٥٩) برقم (١٧٣٧) والترمذي في جامعه (٥٥٨/٤) برقم (٢٣١٧) أبواب الزهد باب بدون ترجمة. وابن ماجه في سننه (٢/ ١٣١٥) برقم (٣٩٧٦) كتاب الفتن باب كف اللسان في الفتنة. والحديث صححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ١٠٢٧).

(٥) ينظر: شرح النووي على مسلم (١١/ ٢٧). المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٣٩٢.

(٦) ينظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٦٣).

إنَّ القلب هو مَلِكُ الجوارح جميعها وهو مُسيِّرٌ لها، ولكي ينشغل بالعبادة الحقَّة ويضبط بقية الحواس؛ يجب أن يكونَ طاهرًا نقيًّا خاليًا، إلَّا مَن حُبِّ الله ومن والاه وسار على نهجه المستقيم، مُتخلِّصًا من جميع الأمراض المُفسدة له، والمشقية لجميع جوارح صاحبه.

إنَّ من اعتاد التساهل وتمرَّن عليه، واجترأ على شبهة ثمَّ على شبهة أغلظ منها، وهكذا؛ فسيقع في الحرام لا شكَّ، لأنَّ الشبهة باب الحرام، ومَن ولج مِن هذا الباب لا بدَّ وأن يقع في الحرام، والذي يمنع من ذلك الورع.

يقول القاسمي: من العجائب أنَّا إذا أردنا المال في الدنيا زرعنا وغرسنا وتاجرنا وركبنا البحار والبراري، وخاطرنا واجتهدنا في طلب أرزاقنا أشد الاجتهاد، ثم إذا طمعتْ أعيننا نحو الملك الدائم المُقيم في جنات لا نصب فيها ولا وصب؛ طمعنا بأن نقول بألسنتنا: اللهم اغفر لنا وارحمنا[(١)].

قال الشيخ العثيمين- رحمه الله-: قسَّم النبي صلى الله عليه وسلم الأمور إلى ثلاثة أقسام: حلال بيّن، وحرام بيِّن، ومشتبه؛ الحلال البيّن كَحِلِّ بهيمة الأنعام، والحرام البيِّن كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أشبه ذلك، وكلُّ ما في القرآن من كلمة (أحلَّ) فهو حلال، ومن كلمة (حرَّم) فهو حرام، فقوله تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ﴾[(٢)]؛ هذا حلال بيّن، وقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[(٣)] ؛ هذا حرامٌ بيّن.

وهناك أمور مشتبهات تخفى على الناس، وأسباب الخفاء كثيرة منها: ألَّا يكون النصُّ ثابتًا عند الإنسان، يعني يتردَّد: هل يصحُّ عن الرسول صلى الله عليه وسلم أم لا يصحُّ؟ ثم إذا صحَّ؛ قد تشتبه دلالته: هل يدلُّ على كذا أم لا يدلُّ؟ ثم إذا دلَّ على شيء مُعيَّن؛ فقد يشتبه: هل له مُخصِّص إن كان عامًّا؟ هل له مُقيِّد إن كان مطلقًا؟ ثم إذا تبيَّن فقد يشتبه: هل هو باقٍ أم منسوخ؟[(٤)].

وفي هذا الحديث يرشدنا الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم إلى ما هو خيرٌ لنا في ديننا وأعراضنا، وهو الابتعاد عن مواطن الريب، ليسلم الدين من النقص، والعِرْض من الطعن، فذكر أنَّ

---

(١) موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين (ص: ٢٩٣). موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، المحقق: مأمون بن محيي الدين الجنان، الناشر: دار الكتب العلمية، سنة النشر: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

(٢) البقرة: ٢٧٥.

(٣) البقرة: ٢٧٥.

(٤) شرح رياض الصالحين (٣/ ٤٩٢).



الحلال بيِّن واضح، وهو ما أذن الشارع في فعله بنصٍّ في القرآن أو في كلام الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك الحرام واضح، وهو ما منع الشارع فعله بنصٍّ قرآنيٍّ أو حديث نبويٍّ، وبعبارة أخرى: الحلال هو الطيِّب النافع، والحرام هو الخبيث الضارُّ، وبيْن الحلال والحرام أمور خفيَّة مشتبهة، لا يدري كثير من الناس أهي من الحلال أم من الحرام.

وممَّا يندرج تحت الشبهات؛ الأمور التي لا تطمئن إليها نفسك الطيِّبة، فدعْها إلى ما تطمئن إليه؛ عملًا بحديث: " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ". رواه الترمذي(١).

يقول وابصة بن معبد- رضي الله عنه-:" أتيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أريد أن لا أدع شيئا من البِرِّ والإثم إلَّا سألته عنه، وإذا عنده جمع فذهبتُ أتخطَّى الناس، فقالوا: إليك يا وابصة عن رسول الله- صلى الله عليه وسلم-، إليك يا وابصة، فقلتُ: أنا وابصة؛ دعوني أدنو منه، فإنَّه من أحبِّ الناس إليَّ أن أدنو منه، فقال لي: ادنُ يا وابصة، ادنُ يا وابصة، فدنوتُ منه حتَّى مسَّت ركبتي ركبته، فقال: يا وابصة؛ أخبرُك ما جئتَ تسألني عنه أو تسألني؟ فقلت: يا رسول الله؛ فأخبرني، قال: جئتَ تسألني عن البِرِّ والإثم، قلتُ: نعم، فجمع أصابعه الثلاث فجعل ينكت بها في صدري، ويقول:" يا وابصة؛ استفت نفسك، البِرُّ ما اطمأن إليه القلب واطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في القلب وتردَّد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك". رواه أحمد(٢).

ولقد كان الصالحون من أبناء أمَّتنا يدركون هذا، فقد قال رجل للحسن البصري: أمؤمن أنت؟ قال: إن كنتَ تريد قول الله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ (٣)؛ فنعم، وإن أردتَ قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾(٤)؛ فلا أدري(٥).

(١) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٢٤٨) برقم (١٧٢٣) والترمذي في جامعه (٤/٦٦٨) برقم (٢٥١٨) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع باب بدون ترجمة. والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ١١٧) برقم (٥٢٠١) كتاب الفتن الحث على ترك الشبهات. والحديث صححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٦٣٧).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٢٩/ ٥٢٨) برقم (١٨٠٠١). وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٧٣٤):حسن لغيره.

(٣) البقرة: ١٣٦.

(٤) الأنفال: ٢.

(٥) جاء في شعب الإيمان للبيهقي (١/ ١٦٩) برقم: (٧٥): " سَأَلَ رَجُلٌ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ عَنِ الْإِيمَانِ، فَقَالَ: " الْإِيمَانُ إِيمَانَانِ، فَإِنْ كُنْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْإِيمَانِ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَالْبَعْثِ وَالْحِسَابِ، فَأَنَا مُؤْمِنٌ، وَإِنْ كُنْتَ تَسْأَلُنِي عَنْ قَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ. . .} [الأنفال: ٢] الْآيَةَ قَرَأَ إِلَى قوله {أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا} [الأنفال: ٤] فَوَاللهِ مَا أَدْرِي أَنَا مِنْهُمْ أَوْ لَا ".



إنَّ ترْك المتشابه- وهو الشيء المشكوك في حِلِّه- من صفات عباد الله المتقين الذين يحتاطون لأنفسهم بألَّا يقعوا فيما حرَّم الله تعالى حتى من غير قصد، "لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين، حتى يدع ما لا بأس به، حذرا لما به البأس". رواه الترمذي وابن ماجه(١).

وقد ضرب نبيُّنا صلى الله عليه وسلم لنا مثلًا على ذلك، وهو مُعلِّم الأمَّة وقدوة المتقين، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: أَخَذَ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدَقَةِ، فَجَعَلَهَا فِي فِيهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: كِخْ كِخْ ؛ لِيَطْرَحَهَا، ثُمَّ قَالَ:" أَمَا علمتَ أَنَّا لاَ نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ "(٢).

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: كَانَ لِأَبِي بَكْرٍ- رضي الله عنه- غُلاَمٌ يُخْرِجُ لَهُ الخَرَاجَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ، فَجَاءَ يَوْمًا بِشَيْءٍ فَأَكَلَ مِنْهُ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ لَهُ الغُلاَمُ: أَتَدْرِي مَا هَذَا؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: كُنْتُ تَكَهَّنْتُ لِإِنْسَانٍ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَمَا أُحْسِنُ الكِهَانَةَ، إِلَّا أَنِّي خَدَعْتُهُ، فَلَقِيَنِي فَأَعْطَانِي بِذَلِكَ، فَهَذَا الَّذِي أَكَلْتَ مِنْهُ، فَأَدْخَلَ أَبُو بَكْرٍ يَدَهُ، فَقَاءَ كُلَّ شَيْءٍ فِي بَطْنِهِ". رواه البخاري(٣).

وقد روي أنَّ عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- كان يقول: كنَّا علي زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ندع تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام(٤).

وكان أنس بن مالك- رضي الله عنه- يقول: إنَّكم لتعملون أعمالًا هي أدقُّ في أعينكم من الشَّعر كنَّا نعدُّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات. رواه البخاري(٥).

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (٤/٦٣٤) برقم (٢٤٥١) أبواب صفة القيامة والرقائق والوع باب بدون ترجمة. وابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٠٩) برقم (٤٢١٥) كتاب الفتن باب الورع والتقوى. والحديث ضعفه الألباني كما في ضعيف الجامع الصغير وزيادته ٦٣٢٠، وفي ضعيف سنن الترمذي (٤٣٥).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١٢٦) برقم (١٤٨٥) كتاب الزكاة، باب أخذ صدقة التمر عند صرام النخل وهل يترك الصبي فيمس تمر الصدقة. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧٥١) برقم (١٠٦٩) كتاب الزكاة باب تحريم الزكاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله وهم بنو هاشم وبنو المطلب دون غيرهم.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٥/ ٤٣) برقم (٣٨٤٢) كتاب مناقب الأنصار باب أيام الجاهلية.

(٤) ينظر: الكبائر للذهبي (ص: ١٢٠). الكبائر، المؤلف: تنسب لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، الناشر: دار الندوة الجديدة — بيروت.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٣) برقم (٦٤٩٢) كتاب الرقاق باب ما يتقى من محقرات الذنوب.



والخلاصة: فِي هذا الحديث: التأكيدُ عَلَى السَّعْيِ فِي صَلاحِ الْقَلْبِ، وَحِمَايَتِهِ مِنَ الْفَسَادِ، وَاحْتُجَّ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ الْعَقْلَ فِي الْقَلْبِ لا فِي الرَّأْسِ؛ لقَوْلِهِ تَعَالَى﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾[(١)].

كذلك يجب على المسلم أن يحذر كل الحذر من الاقتراب من الشبهات، فإِنَّ مَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ؛ إمَّا مِنْ كَثْرَةِ تَعَاطِيهِ الشُّبُهَاتِ فيُصَادِفُ الْحَرَامَ وَإِنْ لَمْ يَتَعَمَّدْهُ، وَقَدْ يَأْثَمُ بِذَلِكَ إِذَا نُسِبَ إِلَى تَقْصِيرٍ، أو أَنَّهُ يَعْتَادُ التَّسَاهُلَ وَيَتَمَرَّنُ عَلَيْهِ، وَيَجْسُرُ عَلَى شُبْهَةٍ، ثُمَّ شُبْهَةٍ أَغْلَظَ مِنْهَا، ثُمَّ أُخْرَى أَغْلَظَ، وَهَكَذَا حَتَّى يَقَعَ فِي الْحَرَامِ عَمْدًا، ولذلك ورد عن السَّلَفِ قولهم: " الْمَعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْرِ "[(٢)] أَيْ تَسُوقُ إِلَيْهِ.

---

(١) الحج: ٤٦.

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٣٨٤). شعب الإيمان، المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند، الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.



١٣ ربيع الآخر

فتن كقطع الليل المظلم

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " بَادِرُوا بالأعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا". رواه مسلم(١).

تَظْهَرُ فِتَنٌ عَظِيمَة، مُدْلَهِمَّةٌ كَقِطَعِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ؛ فِتَنٌ تَمُوجُ كمَوْجِ الْبَحْرِ؛ فِتَنٌ يُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، والثباتُ في المُدلهِمَّات الحوادث والأزمان عزيز، ولا تظهر فتنةٌ إلَّا ويسقطُ فيها رجال، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾(٢). وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " تكون فتنٌ؛ القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، من يستشرفها تستشرفه". رواه البخاري(٣).

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أمَّتَه بالتعوُّذ من الفتن قبل ظهورها وعند نزولها، فقال: "تعوَّذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بَطَن". رواه مسلم(٤).

وكانَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يحثُّ على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذُّرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة والمتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم، ووصف النبي صلى الله عليه وسلم نوعًا من شدائد تلك الفتن، وهو أنَّه يُمسي مؤمنًا ثم يصبح كافرًا، أو عكسه، وهذا لعظم الفتن، ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا التقلُّب.

والفتن هي الابتلاء والاختبار بالمحن والمنكرات والشدائد؛ التي تحول بين العبد وبين العمل الصالح، وهي قسمين: فتن شبهات؛ وعلاجها العلم، وفتن شهوات؛ وعلاجها الإيمان والصبر.

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١١٠) برقم (١١٨) كتاب الإيمان باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن.

(٢) الحج: ١١.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٩٨) برقم (٣٦٠١) كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٢١١) برقم (٢٨٨٦) كتاب الفتن وأشراط الساعة باب نزول الفتن كمواقع القطر.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٩٩) برقم (٢٨٦٧) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار.



وممَّا يدلُّ على خطر الفتن؛ ما حذَّر الرسول صلى الله عليه وسلم منه أمَّته، فقد أنذرهم كثيرًا من هذه الأمور العظيمة والفتن الكبيرة، كما قالت أم سلمة- رضي الله عنها-: استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم ليلةً من منامه فزعًا وهو يقول: "سبحان الله! ماذا أُنزل من الفتن؟ وماذا فُتِحَ من الخزائن؟ أيقِظوا صواحب الحجرات، فربَّ كاسيةٍ في الدنيا عاريةٍ في الآخرة". رواه البخاري(١)، فمراده بالفتن العذاب، وبالخزائن الرحمة والخير الذي حصل للمسلمين بالفتوحات الإسلامية.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما-: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فنزلنا منزلًا فنادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصلاة جامعة، فاجتمعنا، فقال صلى الله عليه وسلم: " ما بعث الله نبيًّا قبلي إلَّا كان حقًّا عليه أن يدلَّ أمته على خير ما يعلمه لهم، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم، وإنَّ الله جعل عافية أمَّتي في أولها، وسيصيب آخرَها بلاءٌ وفتن، يُرقِّق بعضها بعضًا، تأتي الفتنة فيقول المسلم: هذه مهلكتي، فتنكشف، ثم تأتي أخرى فيقول: هذه هذه، فمَن أحبَّ أن يُزحزح عن النار ويُدخلَ الجنَّة؛ فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأتِ للناس ما يُحبُّ أن يُؤتوا إليه، ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده، وثمرة قلبه، فلْيُطِعْهُ قدر ما استطاع، فإن جاء آخَرُ ينازعه فاضربوا عنق الآخر". رواه مسلم(٢).

ومن الفتن فتنة الناس بعضهم بعضًا، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾(٣)، يقول ابن القيم- رحمه الله تعالى-: وهذا عام في جميع الخلق، امتحن بعضهم ببعض؛ فامتحن الرسل بالمرسَل إليهم، والمرسَل إليهم بالرسل، وامتحن العلماء بالجهَّال، وامتحن الجهَّال بالعلماء، وامتحن الأغنياء بالفقراء، وامتحن الفقراء بالأغنياء(٤).

وقال حذيفة- رضي الله عنه-: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تُعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَ فيه نكتةٌ سوداء، وأيُّ قلبٍ أنكرها نُكِتَ

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٣٤) برقم (١١٥) كتاب العلم باب العلم والعظة بالليل.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٤٧٢) برقم (١٨٤٤) كتاب الإمارة باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول.

(٣) الفرقان: ٢٠.

(٤) ينظر: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ١٦٠). إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: مكتبة المعارف، الرياض، المملكة العربية السعودية.



فيه نكتةٌ بيضاء، حتى تعود القلوب إلى قلبين، قلب أسود مربادًا كالكوز مُجَخِّيًا[١]، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرًا؛ إلَّا ما أشرب من هواه، وقلب أبيض كالصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض". رواه مسلم[٢].

وقد ضُلِّلت الأمَّة بكثيرٍ من الآراء والفتن، ورُوِّجت ضلالات ودعايات انخدع بها مَن انخدع، وظنَّوا الحقَّ باطلًا، ولم يتبصَّروا في عواقب الأمور ومآلاتها

عجبًا لها تغــوي بألفِ لســـــانِ ... يحوي الســـــمومَ كلدغةِ الثعبانِ
حتَّى إذا ما استشـــــرفت وتزيَّنت ... جمعت رِعاعًا حول كل خَـــوانِ
ملعونـةٌ بحبالهـــــا وعيالهـــــا ... مَن أيقظَ الملعــونَ دونَ تـــوانِ
فرســـــولُنا المُختارُ حــــذَّرَ فِتنةً ... تأتي على الدهمــاءِ كالطوفـــانِ
صمَّاءُ لا تُصغي إلى صـوتِ الهُدى ... ولها ذراعٌ شاســـــعُ الشـطآنِ
عميــــــاءُ كلَّ عظيمةٍ ليست ترى ... بجِراكِهـا تدعـو إلى الأضغـانِ
بكمـــــاءُ في فمها المياهُ فما سوى ... صمتٌ لديهِ الحـــقُّ دونَ بيـانِ
ســـــوداءُ كالليلِ البهيمِ فلا تعي ... غير لوقاحـــةِ منطقَ الطغيـانِ[٣]

ولا شك أن الإسلام قد أرشد المسلم إلى أمور كثيرة يتقي بها خطر الفتن:

منها: التعوُّذ بالله تعالى من الفتن؛ ما ظهر منها وما بطن: ودعاء الله تعالى أن يُجنِّبنا الفتن، وهذا يُعدُّ علاجًا وقائيًّا للفتنة قبل حصولها، فالمسلم ينبغي عليه أن يُكثر من هذا الدعاء النبوي الكريم: " اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترْك المنكرات، وحُبَّ المساكين، وأن تغفر لي وترحمني وتتوب عليَّ، وإن أردتَ بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون". رواه الترمذي[٤]، وأرشد الرسول صلى الله عليه وسلم أمَّته إلى الالتجاء إلى الله تعالى من الفتن، فقال:" تعوَّذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن". رواه مسلم[٥].

(١) المجخي: المائل عن الاستقامة والاعتدال. يشبه القلب الذي لا يعي خيراً بالكوز المائل الذي لا يثبت فيه شيء.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١٢٨) برقم (١٤٤) كتاب الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا وأنه يأرز بين المسجدين.

(٣) لم أقف على قائلها.

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٣٦٨) برقم (٣٢٣٥) أبواب تفسير القرآن باب ومن سورة ص. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٧/ ٢٣٥).

(٥) تقدم تخريجه قريبًا.



ومنها: تحقيق التوحيد الخالص لله، واعتقاد أنَّ كلَّ ما يُصيب الإنسان من فتنة وبلاء إنما هو بقدر الله وقضائه، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾(١).

ومنها: الاعتصام بالكتاب والسنة؛ لأن ذلك مما يدفع عن العبد كثيرًا من الفتن التي تصيبه، فبالاتحاد تقوى الشوكة، ويعزُّ الدين، ويذلُّ الكفر، يقول تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾(٢)، وقال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: " تركتُ فيكم أمرين لن تضلُّوا ما إن تمسَّكتم بهما: كتاب الله وسُنَّتي، ولن يتفرقا حتى يَرِدا عليَّ الحوض". رواه مالك والحاكم(٣).

ومنها: الحرص على العبادة أيام الفتن، وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم فضل العبادة أيام الهرج والقتل واختلاف الأمور، فقال: "العبادة في الهرج كهجرة إليَّ" رواه مسلم(٤).

ومنها: لزوم التوبة والاستغفار والإكثار من ذكر الله، يقول الله تعالى: ﴿فَلَوۡلَآ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾(٥)، وقال عليٌّ- رضي الله عنه-: ما نزل بلاءٌ إلَّا بذنب، ولا رُفع إلَّا بتوبة(٦).

ومنها: العلم الشرعي المبني على الكتاب والسنة، فإن العلم نور يضيء طريق الظلمات والفتن، وبالعكس فالجهل ظلام حالك يقود الإنسان إلى الهاوية والعياذ بالله. كما قال صلى الله عليه وسلم: "إن من أشراط الساعة أن يُرفع العلم ويظهر الجهل" رواه البخاري ومسلم(٧).

---

(١) التغابن: ١١.
(٢) آل عمران: ١٠٣
(٣) رواه مالك في «الموطأ» ٢/ ٨٩٩، ووصله ابن عبد البر في «التمهيد» ٢٤/ ٣٣١ بإسناد عن أبي هريرة مرفوعا، وأيضا عن عمرو بن عون، وقال: وهذا أيضا محفوظ معروف مشهور عن النبي - صلى الله عليه وسلم - عن أهل العلم شهرة يكاد يستغنى بها عن الإسناد. ورواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (١/ ١٧٢) برقم (٣١٩). والحديث صححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٥٦٦).
(٤) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٦٨) برقم (٢٩٤٨) كتاب الفتن وأشراط الساعة باب فضل العبادة في الهرج.
(٥) الأنعام: ٤٣.
(٦) ذكره عنه شيخ الإسلام في قاعدة في الصبر (ص: ٩٥). قاعدة في الصبر، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: العدد ١١٦ - السنة ٣٤، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
(٧) رواه البخاري في صحيحه (١/ ٢٧) برقم (٨٠) كتاب العلم باب رفع العلم وظهور الجهل. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٦) برقم (٢٦٧١) كتاب العلم باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل.

والخلاصة: أن يحذر المسلم من الاستشراف للفتن والاقتراب منها والتطلُّع لها، وعليه أن يتعوَّذ بالله تعالى منها، وأن يبتعد عنها قدر استطاعته، وأن يسأل الله النجاة منها.



١٤ ربيع الآخر
ماء زمزم لما شُرِبَ له

ماء زمزم ماء ينبع من بئر زمزم في الحرم المكي في مكة المكرمة، إذ يقع إلى جوار الكعبة، وماء زمزم صالح للشرب وله مكانة عظيمة في نفوس المسلمين، فقد خصه الله تعالى بمزايا إعجازية هامة.

ووجود ذلك الماء في هذا الوادي القاحل كرامة خصَّ الله بها سيدنا إسماعيل وأمه هاجر- عليهما السلام-، بل وكل من جاء وسكن تلك البلدة المباركة أو زارها، وهي سبب لعمران وحياة مكة المكرمة، ومن الآيات البينات في الحرم.

وقد ورد في فضلها ما رواه مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:" إنها مباركة، وإنها طعام طُعْم[١]، وشفاء سقم"[٢].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من طوافه يوم العيد يوم النحر أتاها وشرب منها.

ومن ذلك حديث جابر- رضي الله عنه- أنه صلى الله عليه وسلم قال:" ماء زمزم لما شُرب له." رواه أحمد[٣].

وقد قال صلى الله عليه وسلم كما ذكر الحافظ المنذري عن ابن عباس- رضي الله عنهما-:" خيرُ ماءٍ على وجهِ الأرضِ ماءُ زمزمَ فيه طعامُ الطعمِ وشفاءُ السُّقمِ"[٤].

وقد ذكروا في سبب تسمية ماء زمزم بهذا الاسم أقوال عديدة؛ منها:

- لكثرة مائها وحركته.
- لزمزمة جبريل- عليه السلام- بقربه أي تكلُّمه.
- لزمِّ هاجر للماء عند انفجاره، أي أنها ضمَّته وحصرته بالتراب لئلَّا يتشتَّت ويضيع.
- يُقال بأنها سمِّيت لكثرة فوائدها ومنافعها التي لا تُقارن بماء آخر.

---

(١) (طعامُ طعمٍ) يقال: هذا طعامُ طعم، أي: طعام شبع، يعني، أنه يُشْبِع ويكفُّ الجوع ويكفي منه.

(٢) أصله في صحيح مسلم (٤/ ١٩١٩) برقم (٢٤٧٣) كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه دون قوله "شفاء سقم".

(٣) رواه أحمد في مسنده (٢٣/ ١٤٠) برقم (١٤٨٤٩). وابن ماجه في سننه (٢/ ١٠١٨) برقم (٣٠٦٢) باب الشرب من زمزم. والحديث صححه الألباني كما في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٤/ ٣٢٠).

(٤) رواه الطبراني في المعجم الأوسط (٤/ ١٧٩) برقم (٣٩١٢). والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٣/ ٤٤).



وقد جُعل ماء زمزم طعامًا وشرابًا، فأول ما تفجَّر لإسماعيل وأمه- عليهما السلام- كان الطعام والشراب الوحيد لهما، وكانت قبيلة قريش في الجاهلية تطلق على زمزم شُبَاعة؛ لأنه مشبع لمن شرب منه، وقال ابن القيم رحمه الله: "شاهدتُ من يتغذَّى به الأيام ذوات العدد، قريبًا من نصف الشهر أو أكثر، ولا يجد جوعًا، ويطوف مع الناس كأحدهم"(١).

وقد جعل الله ماء زمزم شفاء للأمراض بإذن الله، وقد وصفتها العرب قديمًا بالعافية، لأنها سبب للشفاء من الأمراض، وتزداد بركة ماء زمزم وفضله في التداوي إذا قرأ عليها ما تيسَّر من القرآن الكريم.

وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت: كان رسولُ صلى الله عليه وسلم: "يَحْمِلُ مَاَء زَمْزَمَ فِي الأَدَاوَى وَالقِرَبِ، وَكَانَ يَصُبُّ عَلَى المَرْضَى وَيَسْقِيهِم" رواه الترمذي(٢).

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل- رحمهما الله- عن بعض أحوال أبيه: ورأيتُه غيرَ مرَّة يشرب من ماء زمزم يستشفي به، ويمسح به يديه ووجهه(٣).

ومن السُنَّة تسمية الله قبل الشرب، وحمْد الله بعده، والتنفُّس ثلاثًا، والتضلُّع من الماء عند شربه، وهو الإكثار من الشرب حتَّى يتمدَّد الجنب والأَضلاع، وعند أبي داوود عن أنس بن مالك – رضي الله عنه- أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا شرب تنفَّس ثلاثًا، وقال: هو أهنأ وأمرأ وأبرأ(٤).

وقد روى ابن ماجهْ عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: إذا شربتَ منها – أي من زمزم – فاستقبل القبلة، واذكر اسم الله، وتنفَّس ثلاثًا، وتضلَّع منها، فإذا فرغتَ فاحمد الله عزَّ وجلَّ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلَّعون من زمزم(٥).

---

(١) ينظر: زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٣٦١).

(٢) رواه الترمذي في جامعه (٣/ ٢٨٦) برقم (٩٦٣) أبواب الحج باب بدون ترجمة ولفظه: عن عائشة، أنها كانت تحمل من ماء زمزم وتخبر «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحمله». والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٥٤٣). ولم أقف عليه باللفظ المذكور.

(٣) ينظر: مسائل الإمام أحمد رواية ابنه عبد الله (ص: ٤٤٧). مسائل أحمد بن حنبل رواية ابنه عبد الله، المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ)، المحقق: زهير الشاويش، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠١هـ ١٩٨١م

(٤) رواه أبو داود في سننه (٣/ ٣٣٨) برقم (٣٧٢٧) كتاب الأشربة باب في الساقي متى يشرب. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٨/ ٢٢٧).

(٥) رواه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٠١٧) برقم (٣٠٦١) كتاب المناسك باب الشرب من ماء زمزم. والحديث ضعفه الألباني كما في إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (٤/ ٣٢٥).



وأن يُكثر من الدعاء فيدعو بخيري الدنيا والآخرة، فقد روى الدارقطني عن ابن عباس- رضي الله عنهما- أنه كان إذا شرب ماء زمزم قال: اللهم إني أسألك علمًا نافعًا، ورزقًا واسعًا، وشفاء من كل داء(١).

وكان هذا حال السلف الصالح فقد كانوا يحرصون على الإكثار من شُرب ماء هذه البئر المباركة، فقد مكث الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري- رضي الله عنه- في مكة ثلاثين يومًا لا يطعم إلا زمزم حتى سمن وتكسَّرت عكن بطنه وذهب عنه الجوع(٢).

ولا يشترط في حصول بركته أن يُشرَب في الحرم أو مكة، بل أثره فعَّال وباق بإذن الله إذا نُقِل وأُخرِج إلى بلاد بعيدة.

وقال الحكيم الترمذي في كتابه نوادر الأصول: فالشَّارب لزمزم إنْ شَرِبه لِشَبَعٍ أشبعه الله، وإنْ شَرِبَه لِرِيٍّ أرواه الله، وإن شربه لشفاءٍ شفاه الله، وإن شَرِبَه لِسوء خُلُقٍ حَسَّنه الله، وإنْ شَرِبَه لِضِيقِ صدرٍ شرَحَه الله، وإنْ شَرِبَه لانغلاقِ ظلماتِ الصدرِ فَلَقَها الله، وإنْ شَرِبَه لِغِنَى النَّفْس أغناه الله، وإنْ شَرِبَه لحاجةٍ قضاها الله، وإنْ شَرِبَه لأمرٍ نابه كفاه الله، وإنْ شَرِبَه لكُربةٍ كشَفَها الله، وإنْ شَرِبَه لِنُصْرةٍ نصَرَه الله، وبأيَّةِ نيَّةٍ شَرِبَها من أبواب الخير والصَّلاح وفَّى اللهُ له بذلك؛ لأنَّه استغاثَ بما أظهره اللهُ تعالى من جَنَّتِه غِياثًا(٣).

---

(١) رواه الدارقطني في سننه (٣/ ٣٥٤) برقم (٢٧٣٨). والحديث لا يصح فقد ذكره الألباني في بدع الحج كما في حجة النبي (ص: ١١٦). سنن الدارقطني، المؤلف: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ)، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الارنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.. حجة النبي صلى الله عليه وسلم كما رواها عنه جابر رضي الله عنه، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الخامسة – ١٣٩٩.

(٢) ينظر: سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (١/ ١٩٠). سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، المؤلف: محمد بن يوسف الصالحي الشامي (المتوفى: ٩٤٢هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

(٣) ينظر: نوادر الأصول في أحاديث الرسول (٣/ ٢٧٤). نوادر الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، المؤلف: محمد بن علي بن الحسن بن بشر، أبو عبد الله، الحكيم الترمذي (المتوفى: نحو ٣٢٠هـ)، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، دار النشر: دار الجيل، مكان النشر: بيروت، سنة النشر: ١٩٩٢م.



وقد ورد أنَّ الإمام أبا حنيفة- رحمه الله-: شَرِبَ ماء زمزم ليكون من أعلم العلماء، فكان كذلك، وناهيك به علمًا وصلاحًا وفضلًا.

قال ابن حجر- رحمه الله-: واشتُهر عن الإمام الشافعيّ- رحمه الله- أنه شرب ماءَ زمزم للرَّمي، فكان يُصيب من كلِّ عشرة تسعةً[1].

وشَرِبَه الحاكم أبو عبد الله لحُسْنِ التَّصنيف ولغير ذلك، فصار أحسنَ أهل عصره تصنيفًا.

وصلَّى بأركان المقام حجيجُنا — وفى زمزم ماء طهور وردناه
وفيه الشفا، فيه بلوغ مرادنا — لما نحن ننويه إذا ما شربناه[2]

ئوقيل أيضًا:

وزمزم ماؤها يطوي غليلي — ويشفي كل ذي سقم عليل
فإن رُمتَ الشفا فاحرص عليها — فما لك غير زمزم من سبيل[3]

ومن إعجاز بئر زمزم : أنها تكفي الشَّاربين ولو بلغوا الملايين، وإذا توقَّفوا عن الشُّرب توقَّفت عن الضَّخ، ولم تَجْرِ على وجه الأرض وتفور.

وقد اكتشف بعض الباحثين أن ماء زمزم ماء عجيب يختلف عن غيره من المياه في التركيب، وكلَّما أُخذ منه زاد عطاءً، وهو نقيٌّ طاهر، لا يوجد فيه جرثومة واحدة.

والخلاصة: أن ماء زمزم هو نفسه الماء الذي يأتينا من بئر زمزم، وهذه البئر توجد في الحرم المكيِّ في مكة المكرَّمة بالمملكة العربية السعوديَّة. وهذه الماء هي ماء مقدَّسة عند المسلمين، وقد خصَّها الله تعالى بمزايا إعجازيَّة خطيرة، فحسب الدين الإسلاميَّ أنَّ بئر زمزم هو البئر الذي فجَّره الله سبحانه

---

(١) لم أقف عليه عند ابن حجر، لكن نقله السخاوي في الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر (١/ ١٦٦)، قال: "بل رُوي عن إمامنا الشافعي -رحمه الله- أنه قال: شربتُه لثلاث: للرَّمْي، فكنت أصيب العشرة من العشرة، والسبعة من السبعة، وللعلم، فها أنا كما ترون، ولدخول الجنة، وأرجو حصول ذلك". الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر، المؤلف: شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ)، المحقق: إبراهيم باجس عبد المجيد، الناشر: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م. واللفظ المذكور نقله عن الشافعي بعض الحنفية والمالكية.

(٢) ينظر: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام (٢/ ٣٤٨). شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، المؤلف: محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي الحسني الفاسي (المتوفى: ٨٣٢هـ)، الناشر: دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م

(٣) الأبيات للأستاذ الشاعر/ محمد ضياء الدين الصابوني الحلبي. https://tall-alsafi.ahlamontada.com/t178-topic



وتعالى لسيدنا إسماعيل وأمِّه هاجر- عليهما السلام-، وذلك عندما تركهما سيدنا إبراهيم- عليه السلام- في منطقة الكعبة وحدهما، وقد تفجَّرت عيون الماء هذه ليسقيهما الله من عنده. وبئر زمزم يعتبر أحد أهم العناصر الموجودة في الحرم المكيِّ، وهي أشهر بئر على سطح الكرة الأرضيَّة، حيث لها مكانتها الروحيَّة للمسلمين وارتباطهم بهذا المكان خاصَّة للحجَّاج والمعتمرين.

١٥ ربيع الآخر

أنا وكافل اليتيم كهاتين

لقد أولى الإسلام باليتيم عناية فائقة واهتمامًا كبيرًا، حتى جاءت وصايا القرآن به متضافرة، وآيات الإحسان إليه متكاثرة، ولم ينس رسول الله صلى الله عليه وسلم اليتيم، بل أوصى به وشدَّد على من يُسيىء إليه، وألحق الإثم الكبير فيمن يعتدي على اليتيم؛ بالقول أو الفعل أو يعتدي على ماله أو يُسيىء إليه بأي نوع من أنواع الإساءة، فهو على خطر عظيم.

قال تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾(١).

قال العلامة السعدي: ذكر الله تعالى المُنفَق عليهم، وهم أولى الناس ببرِّك وإحسانك. من الأقارب الذين تتوجَّع لمصابهم، وتفرح بسرورهم، الذين يتناصرون ويتعاقلون، فمِن أحسنِ البرِّ وأوفقه؛ تعاهد الأقارب بالإحسان المالي والقولي، على حسب قربهم وحاجتهم، ومنهم اليتامى الذين لا كاسب لهم، وليس لهم قوة يستغنون بها، وهذا من رحمته تعالى بالعباد، الدالَّة على أنه تعالى أرحم بهم من الوالد بولده، فالله قد أوصى العباد، وفرض عليهم في أموالهم، الإحسان إلى مَن فُقِدَ آباؤهم ليصيروا كمن لم يفقد والديه، ولأن الجزاء من جنس العمل؛ فمَن رحم يتيم غيره رُحِمَ يتيمُه(٢).

فالإحسان إلى اليتيم ذو ثواب مُعجَّل في الدنيا مع ما يُدخَّر في الآخرة، وإن كان مسحة على رأس؛ فذلك الإحسان سببٌ للين القلب ونداوة العين، شكا رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قسوة قلبه، فقال له:" امسح رأس اليتيم، وأطعم المسكين". رواه أحمد(٣).

---

(١) البقرة: ١٧٧.

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٣).

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٤/ ٥٥٨) برقم (٩٠١٨). والحديث صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٥٠٧) بلفظ: "إن أردت تليين قلبك، فأطعم المسكين وامسح رأس اليتيم".



وضمان النصر والرزق قرين الإحسان لليتيم، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" هل تُنصَرون وتُرزَقون إلَّا بضعفائكم؟" رواه البخاري[١].

وذلك الإحسان مطهرة للمال، والمال حين ينفق منه يغدو نعمة على صاحبه، قال النبي صلى الله عليه وسلم:" إن هذا المال خضرة حلوة، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل". رواه البخاري[٢].

ولقد جاء الإسلام واليتيم ليس له حظ في الحياة فأمر بإكرامه والإحسان إليه، وحينما هاجر المسلمون إلى الحبشة وأرادت قريش إرجاعهم، وقف جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ- رضي الله عنه- أمام النجاشي ملك الحبشة يشرح له محاسن الإسلام وأخلاقه الراقية، فَقَالَ لَهُ من جملة ما قال:" وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنْ الْمَحَارِمِ وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلاَةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ". أخرجه أحمد[٣].

قالـــوا: اليتـــيمُ، فَمَـــاجَ عطـــرُ قصـــيدتي وتلقَّتـــتْ كلماتُهـــا تَعظيمَـــا
وسمعْـــتُ منهـــا حكمـــةً أزليَّـــةً أهـــــدتْ إليَّ كتابَهـــــا المرقومـــــا
حَسْبُ اليتيمَ سعـادةً أنَّ الـــذي نَشَرَ الهُـــــدَى في النَّاسِ عاشَ يَتيمَا[٤]

ولقد أكَّد القرآن الكريم على حقيقة الإحسان إلى اليتيم، وعدم الاعتداء على ماله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[٥]، وقال أيضًا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[٦].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ٣٦) برقم (٢٨٩٦) كتاب الجهاد والسير باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ١٢١) برقم (١٤٦٥) كتاب الزكاة باب الصدقة على اليتامى.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٢٦٣) برقم (١٧٤٠). والحديث صححه الألباني في صحيح السيرة النبوية (ص: ١٧٤).
صحيح السيرة النبوية، المؤلف: محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، الناشر: المكتبة الإسلامية – عمان – الأردن، الطبعة: الأولى.

(٤) الأبيات للشاعر إيليا أبو ماضي كما في https://kayanaytam.org/

(٥) الأنعام: ١٥٢.

(٦) الإسراء: ٣٤.



وجعل الإسلام من السبع الموبقات- التي توبق صاحبها وتدخله نار جهنم- أكل مال اليتيم، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالَ:" اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الْغَافِلاَتِ". رواه البخاري ومسلم[1].

وحذَّر القرآن من إهانة اليتيم وأذاه بأي نوع من أنواع الإهانة والأذى، قال سبحانه: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾[2]، وقال:﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾[3]، وقال: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[4].

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ- رضي الله عنهما- قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[5]. وَ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا﴾[6]، قَالَ: اجْتَنَبَ النَّاسُ مَالَ الْيَتِيمِ وَطَعَامَهُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى المُسْلِمِينَ، فَشَكَوْا ذَلِكَ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ إِلَى قَوْلِهِ ﴿لَأَعْنَتَكُمْ﴾[7]. أخرجه أحمد وأبو داود[8].

واليُتم ليس سُبة في جبين صاحبه، فإن الله سبحانه قد ارتضى لليتيم ما ارتضى لنبيّه صلى الله عليه وسلم، واليُتم مظنة نبوغ ومسؤوليَّة وعصاميَّة، فكم من يتيم خلَّد التاريخ مآثره! من لدن محمد

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٠) برقم (٢٧٦٦) كتاب الوصايا باب قول الله تعالى: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما، إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا} [النساء: ١٠]. ومسلم في صحيحه (١/ ٩٢) برقم (٨٩) كتاب الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها.

(٢) الفجر: ١٥-١٧.

(٣) الضحى: ٩.

(٤) الماعون ١-٣.

(٥) الإسراء: ٣٤.

(٦) النساء:١٠.

(٧) البقرة: ٢٢٠.

(٨) رواه أحمد في مسنده (٥/ ١٤٠) برقم (٣٠٠٠). وأبو داود في سننه (٣/ ١١٤) برقم (٢٨٧١) كتاب الوصايا باب مخالطة اليتيم في الطعام. والنسائي في السنن الكبرى (٦/ ١٦٨) برقم (٦٤٦٣) كتاب الوصايا، ما للوصي من مال اليتيم إذا قام عليه. والحديث حسنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٨/ ٢٤١).



صلى الله عليه وسلم إلى حاضر العصر: عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وأحمد بن حنبل، وسفيان الثوري، والشافعي والبخاري وعبد العزيز بن باز؛ كلهم كانوا أيتامًا غدوا أنجمًا في سماء المجد؛ فحري باليتيم أن يسعى ليكون واحدًا من أولئك الركب الميمون؛ فما أحراك بذلك! وما أجدرك به!

قال الله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[١]، بهذا الشعور المرهف ينطلق المؤمن في تعامله مع اليتيم، كما قال قتادة: " كن لليتيم كالأب الرحيم".

ولقد أمر الله تعالى بالإحسان إلى اليتامى، كما قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾[٢].

ويستصحب في ذلك الإحسان رجاء حسن العاقبة، كما بشَّر النبي صلى الله عليه وسلم كافل اليتيم بقوله:" أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا" وأشار بالسبابة والوسطى وفرَّج بينهما شيئًا". رواه البخاري[٣]. فلنعم الجار! ولنعم الدار!

ويحضه على بذل مزيد الإحسان علْمُه أنَّه سببٌ لنيل الكتاب باليمين، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾[٤] .

وفي حقيقة الأمر وللأسف؛ ثمة أيتام لكنَّ آباءهم أحياء، قد تخلَّوا عن واجبهم، وأهملوا تربية فلذات الأكباد، كما قال أمير الشعراء أحمد شوقي:

ليس اليتيمُ من انتهى أبواه ... من همِّ الحياة وخلَّفاه ذليلا
إنَّ اليتيمَ هو الذي تلقى له ... أُمًّا تخلَّتْ أو أبًا مشغولا[٥]

---

(١) النساء: ٩.

(٢) النساء: ٣٦.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٧/ ٥٣) برقم (٥٣٠٤) كتاب الطلاق باب اللعان.

(٤) البلد: ١٢- ١٨.

(٥) ينظر: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (١/ ٢٩، بترقيم الشاملة آليا).



والخلاصة: أنَّ لكفالة اليتيم وإكرامه فوائد كثيرة منها: صحبة الرَّسول- صلى الله عليه وسلم- في الجنَّة، وكفى بذلك شرفًا وفخرًا، وكفالة اليتيم صدقة يُضاعف لها الأجر، إن كانت على الأقرباء فله أجر الصدقة وأجر القرابة، وكفالة اليتيم والإنفاق عليه دليل طبع سليم وفطرة نقيَّة، وكفالة اليتيم والمسح على رأسه وتطييب خاطره يُرقِّق القلب ويزيل عنه القسوة، وكفالة اليتيم تعود على الكافل بالخير العميم في الدنيا فضلًا عن الآخرة.



١٦ ربيع الآخر

الأيام البيض

يُعدُّ الصيام من العبادات التي لم يتقرَّب بها إنسان لأي معبود سوى الله عزَّ وجلَّ، وقد وصى النبيُّ صلى الله عليه وسلم أبا أمامة- رضي الله عنه- بالصوم حينما سأله:" أي العمل أفضل؟ قال: عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَا عِدْلَ لَهُ". رواه النسائي[1]، وقال صلى الله عليه وسلم: "إنَّ فِي الْجَنَّةِ غُرَفًا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا، وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا، أَعَدَّهَا اللَّهُ لِمَنْ أَلَانَ الْكَلَامَ، وَأَطْعَمَ الطَّعَامَ، وَتَابَعَ الصِّيَامَ، وَصَلَّى بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ". رواه أحمد[2].

وقد اتَّفق الأئمة على أنَّه من السُنَّة صوم الأيام البيض من كل شهر، وذهب جمهور الفقهاء من الحنفيَّة والشافعيَّة والحنابلة إلى استحباب صيام الأيام البيض؛ لورود الأحاديث النبويَّة التي تحثُّ على صيام هذه الأيام.

ويُقصد بالأيام البيض أيام الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر، من كل شهر عربي، وسُمِّيت الأيام البيض بهذا الاسم لاكتمال القمر بها ورؤيته بشكل واضح ناصع البياض فى السماء، وتُسمَّى لياليها بالليالي المقمرة.

ومَن يصُم الأيام البيض فكأنما صام الدهر كلَّه، ويُؤجر على صيامها بأجر عظيم ومضاعف، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم:" صم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها، وذلك مثل صيام الدهر" رواه البخاري[3]، وإن تركها المسلم فلا إثم عليه، ولكنه سيُحرَم من الأجر العظيم الذي يضاعفه الله تبارك وتعالى لمن يشاء من عباده الصالحين. وعن أبي ذر الغفاري- رضي الله عنه-

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٣٦/ ٤٦٥) برقم (٢٢١٤٩). والنسائي في السنن الكبرى (٣/ ١٣٤) برقم (٢٥٤٣) كتاب الصيام، ذكر الاختلاف على محمد بن أبي يعقوب في حديث أبي أمامة في فضل الصيام. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٥/ ٣٦٦).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٧/ ٥٣٩) برقم (٢٢٩٠٥). والحديث صححه الألباني كما في مشكاة المصابيح (١/ ٣٨٨). مشكاة المصابيح، المؤلف: محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقق: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٩٨٥.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٤٠) برقم (١٩٧٦) كتاب الصوم باب صوم الدهر. ومسلم في صحيحه (٢/ ٨١٢) برقم (١١٥٩) كتاب الصيام باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به.



قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إذا صمتَ شيئًا من الشهر فصم ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة". رواه الترمذي[١].

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال: قال النبي- صلى الله عليه وسلم-:" صوم ثلاثة أيام صوم الدهر كُلِّه"[٢].

وروى مسلم عن أبي قتادة الأنصاري- رضي الله عنه- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" صوم ثلاثة أيام من كل شهر، ورمضان إلى رمضان؛ صوم الدهر"[٣].

وروى الترمذي عن أبي ذر الغفاري- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" من صام من كُل شهر ثلاثة أيام فذلك صيام الدهر، فأنزل الله عزَّ وجلَّ تصديق ذلك في كتابه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[٤]، اليوم بعشرة أيام"[٥].

وروى أبو داوود عن قدامة بن ملحان - رضي الله عنه- قال:" كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نصوم الأيام البيض ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة، قال: وقال: هُنَّ كهيئة الدهر"[٦].

---

(١) رواه الترمذي في جامعه (١٢٥/٣) برقم (٧٦١) أبواب الصيام باب ما جاء في صوم ثلاثة أيام من كل شهر. النسائي في سننه (٤/ ٢٢٢) برقم (٢٤٢٤) كتاب الصيام، ذكر الاختلاف على موسى بن طلحة في الخبر في صيام ثلاثة أيام من الشهر. والحديث حسنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٦/ ٦٨). المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي، المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ)، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب، الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ – ١٩٨٦.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٤٠) برقم (١٩٧٩) كتاب الصوم باب صوم داود عليه السلام. ومسلم في صحيحه (٢/ ٨١٧) برقم (١١٥٩) كتاب الصيام باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ٨١٩) برقم (١١٦٢) كتاب الصيام باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والاثنين والخميس.

(٤) الأنعام: ١٦٠.

(٥) رواه الترمذي في جامعه (١٢٦/٣) برقم (٧٦٢) أبواب الصيام باب ما جاء في صوم ثلاثة أيام من كل شهر. وابن ماجه في سننه (١/ ٥٤٥) برقم (١٧٠٨) كتاب الصيام، باب ما جاء في صيام ثلاثة أيام من كل شهر. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٢/ ٢٦٢).

(٦) رواه أحمد في مسنده (٣٣/ ٤٢٩) برقم (٢٠٣٢٠). وأبو داود في سننه (٢/ ٣٢٨) برقم (٢٤٤٩) كتاب الصوم باب في صوم الثلاث من كل شهر. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٥/ ٤٤٩).



وفي الصحيحين عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال:" أوصاني خليلي بثلاثٍ لا أدعهنَّ حتَّى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى، ونوم على وتر"(١).

والخليل هو الصديق الخالص، الذي تخلَّلتْ محبَّته القلب، فصارت في خلاله أي: في باطنه، فهي نصيحة مُحبٍّ صادق المحبَّة، والمراد بالبيض الليالي، وهي التي يكون فيها القمر من أول الليل إلى آخره.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- قال:" قال لي رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: يا عبد الله، ألم أُخبَر أنك تصوم النهار وتقوم الليل، فقلت: بلى يا رسول الله، قال: فلا تفعل؛ صُم وأفطر، وقُم ونَمْ، فإنَّ لجسدك عليك حقًّا، وإنَّ لعينك عليك حقًّا، وإنَّ لزوجك عليك حقًّا، وإنَّ لزورك عليك حقًّا، وإنَّ بحسبك أن تصوم كُلَّ شهر ثلاثة أيام، فإنَّ لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإنَّ ذلك صيام الدهر كلِّه، فشدَّدتُ فشدَّد عليَّ، قُلت: يا رسول الله؛ إنِّي أجد قوَّة، قال: فصم صيام نبيِّ الله داوود- عليه السلام- ولا تزد عليه، قُلت: وما كان صيام نبيِّ الله داوود- عليه السلام-؟ قال: نصف الدهر، فكان عبد الله- رضي الله عنه- يقول بعد ما كبر: يا ليتني قبلتُ رُخصة النبيِّ صلى الله عليه وسلم"(٢).

وقد جاء عن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال:" كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدع صوم أيام البيض في سفر ولا حضر". رواه النسائي(٣).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥٨) برقم (١١٧٨) كتاب التهجد باب صلاة الضحى في الحضر. ومسلم في صحيحه (١/ ٤٩٨) برقم (٧٢١) كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب صلاة الضحى، وأن أقلها ركعتان، وأكملها ثمان ركعات، وأوسطها أربع ركعات، أو ست، والحث على المحافظة عليها.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٣٩) برقم (١٩٧٥) كتاب الصوم باب حق الجسم في الصوم. ومسلم في صحيحه (٢/ ٨١٧) برقم (١١٥٩) كتاب الصيام باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا أو لم يفطر العيدين والتشريق، وبيان تفضيل صوم يوم، وإفطار يوم.

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (١٢/ ١١) برقم (١٢٣٢٠). والنسائي في السنن الكبرى (٣/ ١٧٣) برقم (٢٦٦٦) كتاب الصيام صوم النبي صلى الله عليه وسلم بأبي هو وأمي، وذكر اختلاف الناقلين في ذلك، بلفظ: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفطر أيام البيض في حضر ولا سفر». والحديث صححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٨٧٦).



وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأرنب قد شواها، فأمرهم أن يأكلوا وأمسك الأعرابيُّ، فقال: ما منعك أن تأكل؟، فقال: إنِّي أصوم ثلاثة أيام من كل شهر، قال: إن كنتَ صائمًا فصم الغُرَّ؛ أي: البيض[(١)].

هذا وقد أثبتت أبحاث علميَّة كثيرة أنَّ القمر له أثرٌ في نفسيَّة الإنسان، يظهر عندما يكون بدرًا، أي في أيام الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر من كل شهر قمريٍّ، حيث إنَّه في هذه الفترة يزيد لدى الإنسان التهيُّج العصبيُّ والتوتُّر النفسيُّ، ويرجع سبب ذلك وتفسيره علميًّا إلى أنَّ جسم الإنسان يتكوَّن من ٨٠% من الماء، أما الباقي فهو فقط المواد الصلبة، تمامًا كسطح الأرض، وبما أنَّ قوة جاذبيَّة القمر تُسبِّب المدَّ والجزر في البحار والمحيطات، فإنَّها تُسبِّب أيضًا هذا المدَّ في جسم الإنسان، وهذا يحصل عندما يكون القمر مكتمِلًا في الأيام البيض؛ فذلك يُدلِّل على أنَّ للقمر في دورته الشهرية أثرًا ظاهرًا وحقيقة ثابتة من حيث التأثير الفعلي في سلوك الإنسان، فتتأثَّر الحالة المزاجيَّة عنده بناءً على حركة القمر، وقد تمَّ وصف بعض الحالات عند الإنسان بناءً على ذلك باسم الجنون القمريِّ، ففي هذه الحالات يبلغ اضطراب السلوك عند الإنسان أقصى مدى له في الأيام التي يكون القمر فيها مكتمِلًا، أي في الأيام البيض، وقد جاء في السُّنَّة ما يدلُّ على هذه الحقيقة، فقد روت أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها-" أنَّ النَّبيَّ- صلَّى اللَّه عليهِ وسلَّمَ- نظرَ إلى القمَرِ، فقالَ: يا عائشةُ؛ استَعيذي باللَّهِ من شرِّ هذا، فإنَّ هذا هوَ الغاسِقُ إذا وقَبَ". رواه الترمذي[(٢)].

ومن هنا كان التوجيه النبوي في صيام تلك الأيام كعلاجٍ لتلك الظاهرة، وحَلٍّ لها إذ إنَّ الصيام فيه امتناعٌ عن السوائل، وبالتالي خفض نسبة الماء في الجسم في الفترة التي يُؤثِّر فيها القمر على الإنسان، وبالتالي يستطيع الإنسان السيطرة على قوى جسده ونزعاته، فيكتسب بذلك صفاءً نفسيًّا، واستقرارًا وراحةً وصحةً وطمأنينةً.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٤/ ١٥٤) برقم (٨٤٣٤). والنسائي في السنن الكبرى (٣/ ١٩٩) برقم (٢٧٤٢) كتاب الصيام ذكر الاختلاف على موسى بن طلحة في الخبر في صيام ثلاثة أيام من الشهر. والحديث حسنه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٤/ ٩٣).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٤٣/ ٨) برقم (٢٥٨٠٢). والترمذي في جامعه (٥/ ٤٥٢) برقم (٣٣٦٦) أبواب تفسير القرآن باب ومن سورة المعوذتين. والنسائي في السنن الكبرى (٩/ ١٢٢) برقم (١٠٠٦٤) كتاب عمل اليوم والليلة ما يقول إذا رفع رأسه إلى السماء. والحديث قال عنه الألباني: "حسن صحيح". صحيح وضعيف سنن الترمذي (٧/ ٣٦٦).



كما أثبتت الدراسات المعاصرة أنَّ الصيام يؤدِّي إلى منع تراكم المواد السامة في الجسم، مثل: حمض البول، والبولة، والمنجنيز، وفوسفات الأمونياك في الدم، فإنَّ ما تؤدِّي إليه هذه المواد من تراكمات مؤذية تؤثر سلبًا في أعضاء جسم الإنسان كالمفاصل والكُلى، كما أنَّ في الصوم وقاية من داء الملوك المُسمَّى (النقرس)، وصيام يوم واحد فقط يؤدِّي إلى تطهير الجسم من فضلات عشرة أيام، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر يؤدِّي إلى تخليص الجسم من فضلات وسموم ثلاثين يومًا.

وأيضًا فإنَّ للصوم أهمِّيَّة حيويَّة؛ فبالصوم يتحرَّك المخزون الحيويُّ من المواد الضروريَّة لجسم الإنسان مثل الفيتامينات، والأحماض الأمينيَّة، وبالتالي استهلاكه قبل أن يفسد، ثم يقوم بتجديده بعد الإفطار.

والخلاصة: أنَّه ينبغي أن يضرب المسلم بسهمٍ في كل عبادة من العبادات وينوّع بينها، وألَّا يهمل صيام النوافل بل عليه أن يأخذ بحظٍّ وافرٍ منها، لا سيما الأيام البيض، فقد كانت من سُنَّته صلى الله عليه وسلم التي لا يتركها حضرًا ولا سفرًا.

١٧ ربيع الآخر

أفشوا السلام بينكم

تحيَّة الإسلام هي التحيَّة التي شرعها النبيُّ الكريم لأمَّته؛ وهي إرث أبيه آدم -عليه السلام- التي علَّمها الله- سبحانه وتعالى- له، وأمره بإلقائها على الملائكة أول لقائه بهم في الجنة؛ لتكون تحيَّته وتحيَّة ذرِّيَّته من بعده، وقد واظب النبيُّ- عليه الصلاة والسلام- عليها وحثَّ أصحابه على إفشائها.

قال الشيخ محمد بن صالح بن محمد العثيمين في كتابه شرح رياض الصالحين: ومعنى تحيَّة الإسلام: الدعاء بالسلامة؛ فأنت تدعو لمن تُلقي عليه السلام بأن يُسلِّمه الله من كل آفة؛ أي من الأمراض والشرور والمعاصي ومن عذاب النار[١]، ولذلك قيل للجنَّة: دار السلام؛ لأنَّها دار السلامة من كلِّ مكروهات النفس، قال الله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[٢].

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" والذي نفسي بيده، لا تدخلون الجنَّة حتَّى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتَّى تحابوا، أوَلَا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم". رواه مسلم[٣].

ويتعلَّق بهذا الحديث فوائد:

الفائدة الأولى: قد شرع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم لنا تحيَّة تُميِّزنا عن غيرنا، ورتَّب على فعْلها الثواب، وجعلها حقًّا من حقوق المسلم على أخيه، فتحولت التحيَّة من عادة من العادات إلى عمل يفعله العبد تقرُّبًا إلى الله تعالى، واستجابة لأمر رسوله صلى الله عليه وسلم، وهي: "السلام عليكم"، وبلفظ: "السلام عليكم ورحمة الله"، وبلفظ: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"؛ فعن عمر بن الخطاب- رضي الله عنه- قال:" كنتُ رَديفَ أبي بكرٍ، فيمرُّ على القومِ فيقول: السلامُ عليكم،

---

(١) ينظر هذا المعنى: شرح رياض الصالحين (٤/ ٣٨٠).

(٢) الأنعام: ١٢٧.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٣٩) برقم (١٩٧٥) كتاب الصوم باب حق الجسم في الصوم. ومسلم في صحيحه (١/ ٧٤) برقم (٥٤) كتاب الإيمان باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سببا لحصولها.



فيقولون: السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ، ويقول: السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ، فيقولون: السلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه، فقال أبو بكرٍ: فضَلَنا الناسُ اليومَ بزيادةٍ كثيرةٍ"[١].

فلا ينبغي أن تُبدَّل هذه التحيَّة العظيمة بعبارات أخرى لا تؤدِّي ما تؤدِّيه تحيَّة الإسلام المُبارَكة، مثل: صباح الخير، أو مساء الخير، أو مرحبًا، أو غير ذلك، ممَّا قد يستعمله بعض الناس جهلًا أو إعراضًا، مُكتفين به عن السلام المشروع، وعن عائشة- رضي الله عنها- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" ما حسدتْكم اليهود على شيء؛ ما حسدتكم على السلام والتأمين". رواه ابن ماجه[٢].

الفائدة الثانية: تحيَّة الإسلام الكاملة هي: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، وأقلُّها: (السلام عليكم)، وكلُّ جملة منها بعشر حسنات، وهي ثلاث جُمَل، فمن جاء بها كاملة فله ثلاثون حسنة؛ فعن عمران بن حصين- رضي الله عنهما- قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: السلام عليكم، فردَّ عليه ثم جلس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: عشرٌ، ثم جاء رجل آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فردَّ عليه ثم جلس، فقال: عشرون، ثم جاء آخر، فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فردَّ عليه وجلس، فقال: ثلاثون؛ رواه أبو داود[٣].

الفائدة الثالثة: السُّنَّة إفشاء السلام وإظهاره وإعلانه بين الناس، حتَّى يكون شعارًا ظاهرًا بين المسلمين، لا تُخصُّ به فئة دون أخرى، أو كبير دون صغير، ولا مَن يَعرف دون مَن لا يَعرف؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- أنَّ رجلًا سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الإسلام خيرٌ؟ قال:" تُطعِم الطعام، وتقرأ السلام على مَن عرفت ومَن لم تعرف". متفق عليه[٤].

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٣٤٢) برقم (٩٨٧). والأثر صحح إسناده الألباني كما في صحيح الأدب المفرد (ص: ٣٧٩). الأدب المفرد، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩ – ١٩٨٩. صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري، المؤلف: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، حقق أحاديثه وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر: دار الصديق للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه (١/ ٢٧٨) برقم (٨٥٦) كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها باب الجهر بـ(آمين). والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٢/ ٤٢٨).

(٣) رواه أحمد في مسنده (٣٣/ ١٧٠) برقم (١٩٩٤٨). وأبو داود في سننه (٤/ ٣٥٠) برقم (٥١٩٥) كتاب الأدب باب كيف السلام. والترمذي في جامعه (٥/ ٥٢) برقم (٢٦٨٩) أبواب الاستئذان والآداب باب ما ذكر في فضل السلام. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١١/ ١٩٥).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٢) برقم (١٢) كتاب الإيمان باب إطعام الطعام من الإسلام. ومسلم في صحيحه (١/ ٦٥) برقم (٣٩) كتاب الإيمان باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل.

وقال عمار بن ياسر- رضي الله عنهما-: ثلاثٌ مَن جمعهنَّ فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسه، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار[١].

ولبيان أهمِّيَّة إفشاء السلام فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإفشاء السلام، وأخبر أنَّه سبيلٌ لنشْر المحبَّة والمودة، كما أنَّ إفشاء السلام هو سبيلٌ للتواضع وإظهار خفض الجناح للمسلمين.

قال الإمام النووي مبيِّنًا أهمِّيَّة إفشاء السلام:" والسلام أول أسباب التآلف، ومفتاح استجلاب المودة، وفي إفشائه تمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض، وإظهار شعارهم المُميِّز لهم مِن غيرهم مِن أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النفس، ولزوم التواضع، وإعظام حرمات المسلمين"[٢].

كما أنَّ السلام سبب من أسباب حصول البركة والعلو، ورفعة الدرجات، ومن موجبات المغفرة.

وللبدء بالسلام فضلٌ عظيم، وبذْل السلام من حقِّ المسلم على أخيه.

وفيما يأتي جملة من الفوائد التي تزيد في أهمية إفشاء السلام وفضله:

- السلام من أسماء الله تعالى، وهو المُسلِّم لعباده والمُسلِّم على أوليائه.
- دار السلام هو اسم من أسماء الجنة، فهي دار السلامة من الآفات.
- السلام أمان الله في الأرض، وهو تحيَّة المؤمنين في الجنة، وتحيَّة أهل الإسلام في الدنيا.
- الإسلام هو طريق المحبَّة والتعارُف بين المسلمين.
- إفشاء السلام بين المسلمين يُنشئ المودة والمحبَّة، ويُشعِر كلَّ مسلم بالاطمئنان تجاه الآخرين.
- البخل بالسلام أشدُّ من البخل بالمال.
- إفشاء السلام قد يُزيل العداوة ويُنهي الخصومة ويُذهب سخيمة الصدور.
- المداومة على السلام تُميِّز المسلمين وتكيد أعداء الدين.
- المحافظ على السلام ينال فضل الاتباع وجزاء الطاعة.
- زيادة كلمات التحيَّة تزيد في الحسنات.

وللسلام آداب وأحكام؛ منها:

---

(١) رواه البخاري تعليقًا (١/ ١٥) باب إفشاء السلام من الإسلام.

(٢) شرح النووي على مسلم (٢/ ٣٦).



١- أن يكون التسليم بصوت مسموع يسمعه اليقظان ولا ينزعج منه النائم.

٢- أن يُسلِّم الراكب على الماشي، والماشي على القاعد، والصغير على الكبير، والقليل على الكثير؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم:" يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلَى الْمَاشِي، وَالْمَاشِي عَلَى الْقَاعِدِ، وَالْقَلِيلُ عَلَى الْكَثِيرِ". متفق عليه(١).

٣- أن يُعيد إلقاء السلام إذا فارق أخاه ولو يسيرًا لقوله صلى الله عليه وسلم:" إذا لقي أحدكم أخاه فلْيُسلِّم عليه، فإنْ حالت بينهما شجرة أو جدار أو حجر ثم لقيه فلْيُسلِّم عليه". رواه أبو داود(٢).

٤- أن يُسلِّم على أهل بيته عند الدخول عليهم.

٥- عدم الاكتفاء بالإشارة باليد أو بالرأس، فإنَّه مُخالِفٌ للسُّنَّة، إلَّا إذا كان المُسلَّم عليه بعيدًا، فإنَّه يُسلِّم بلسانه ويُشير بيده ولا يكتفي بالإشارة.

الخلاصة: أن السلام من أسماء الله تعالى، وتحيَّة المؤمنين في الدنيا وفي الجنة، وأنه من شرائع وشعائر الدين الإسلامي، فعلى المسلم أن يواظب على إفشاء السلام حتى تعم فوائد إفشاء السلام وينتشر الأمن والسلام بين الجميع.

صدقْتَ أيا رسولَ اللهِ إنِّي ... فـــديْتُك واتخـــذتُك لي إمامَـــا
تقـــولُ لنا: إذا رمْتُمْ إخاءً ... وحُبًّا بينَكم؛ أفشُوا السلامَا(٣)

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٥٢) برقم (٦٢٣٢) كتاب الاستئذان باب تسليم الراكب على الماشي. ومسلم في صحيحه (٤/ ١٧٠٣) برقم (٢١٦٠) كتاب الإيمان باب يسلم الراكب على الماشي والقليل على الكثير.

(٢) رواه أبو داود في سننه (٤/ ٣٥١) برقم (٥٢٠٠) كتاب الأدب باب في الرجل يفارق الرجل ثم يلقاه أيسلم عليه؟. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١١/ ١٩٥).

(٣) قصيدة عن السلام. ينظر: https://www.alukah.net/literature_language/0/123921/.

١٨ ربيع الآخر

الحياء شعبة من الإيمان

الحياء خصلة من خصال الإيمان، وخُلق من أخلاق الإسلام، مَن اتَّصف به حسُن إسلامه، وعلت أخلاقُه، ومَن اتَّصف به هجر المعصية خجلًا من ربِّه، وأقبل على طاعته بوازع الحبِّ والتعظيم، إنَّها خصلة تُبعدك عن فضائح السيئات وقبيح المنكرات، إنَّها من شُعب الإيمان، إنَّها تكسوك وقارًا واحترامًا، خصلة هي دليل على كرم السجيَّة وطيب النفس، بل هي صفة من صفات الأنبياء والصالحين والصالحات، إنَّها صفة جميلة في الرجال، وفي النساء أجمل، كسْبُها يجعل القبيح جميلًا، وفقْدُها يجعل الجميل قبيحًا.

عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الإِيمانُ بضْعٌ وسَبْعُونَ، أوْ بضْعٌ وسِتُّونَ شُعْبَةً، فأفْضَلُها قَوْلُ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ، وأَدْناها إماطَةُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ، والْحَياءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمانِ" رواه البخاري ومسلم(١).

الحياء هو رأس الأخلاق، ودليل على بقيَّة الأخلاق، مَن تحلَّى به استطاع أن يتحلَّى بباقي الأخلاق الفاضلة، ويتخلَّى عن كل خُلُق قبيح، ومَن حُرِم الحياء عجز عن التحلِّي ببقيَّة الأخلاق الفاضلة، وانغمس في كلِّ خُلُق مذموم.

عرَّفه بعضُهم بأنَّه: تغيُّرٌ وانكسارٌ يعتري الإنسان من خوف ما يُعاب به ويُذمُّ، ومحلُّه الوجه، ومنبعه من القلب.

والحياء صفة من صفات الله عزَّ وجلَّ الثابتة في الكتاب والسُّنَّة، وهي صفة كمال تدلُّ على الكرم والفضل والجود والجلال، عَنْ سَلْمَانَ الفارسيّ- رضي الله عنه- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم:" إِنَّ رَبَّكُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى حَيِيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ إذا رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا". رواه ابن ماجه(٢).

---

(١) رواه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه (١/ ٦٣) برقم (٣٥) كتاب الإيمان باب شعب الإيمان. ورواه البخاري مختصرًا في صحيحه (١/ ١١) برقم (٩) كتاب الإيمان باب أمور الإيمان.

(٢) رواه أبو داود في سننه (٢/ ٧٨) برقم (١٤٨٨) باب تفريع أبواب الوتر باب الدعاء. وابن ماجه في سننه (٢/ ١٢٧١) برقم (٣٨٦٥) كتاب الدعاء باب رفع اليدين في الدعاء. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٣/ ٤٨٨).



وينقسم الحياء باعتبار مَحلِّه إلى قسمين:

١- حياء فطري: وهو الذي يولد مع الإنسان متزوِّدًا به، ومن أمثلته: حياء الطفل عندما تنكشف عورته أمام الناس، وهذا النوع من الحياء منحة أعطاها الله لعباده.

٢- حياء مُكتسَب: وهو الذي يكتسبه المسلم من دينه، فيمنعه من فعل ما يُذمُّ شرعًا، مخافة أن يراه الله حيث نهاه، أو يفقده حيث أمره.

وينقسم باعتبار مُتعلِّقه إلى قسمين:

١- الحياء الشرعي: وهو الذي يقع على وجه الإجلال والاحترام، وهو محمود.

٢- الحياء غير الشرعي: وهو ما يقع سببًا لترْك أمر شرعي، وهذا النوع من الحياء مذموم، وهو ليس بحياء شرعي، وإنما هو ضعف ومهانة.

قال العلامة ابن باز- رحمه الله-: الحياء خُلُق كريم في القلب، يقتضي أن يكف صاحبه عمَّا لا ينبغي من المعاصي، يستحيي فلا يفعل المعاصي ولا يفعل الأشياء التي تنتقد عليه، يمنعه حياؤه من ذلك، فهو من الإيمان، وقد مر النبي صلى الله عليه وسلم على رجل يعظ أخاه في الحياء، يقول له: دع عنك الحياء، فقال له- صلى الله عليه وسلم-:" دعه فإنَّ الحياء من الإيمان". متفق عليه[١]، فالحياء خُلُقٌ قلبيٌّ يمنع صاحبه من الخصال الذميمة والأخلاق المُنحرِفة، ويحمله على مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال[٢].

خيرُ الشمائلِ للفتاةِ حياؤها وكذا الفتى بحيائِهِ يزدانُ
وركازُ أخلاقِ الورى وأساسُها خُلُقُ الحياءِ دعا له الإيمانُ[٣]

ومن مظاهر قلة الحياء:

- المجاهرة بالذنوب والمعاصي وعدم الخوف من الله.

- لبْس النساء الكاسيات العاريات الملابس التي تصف الأجسام، أو الملابس الضيقة أو المفتوحة من الأعلى والأسفل.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٤) برقم (٢٤) كتاب الإيمان باب الحياء من الإيمان. ومسلم (١/٦٣) رقم (٣٦) في الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) أبيات في الحياء، ينظر: https://forum.ashefaa.com/showthread.php?t=30105.

- حديث المرأة مع الرجل الأجنبيِّ عند خروجها واختلاطها به مثل البائع وغيره.
- التلفُّظ والتفوُّه بالألفاظ البذيئة والسيِّئة التي تجرح الآخرين.
- كلام الرجل مع غيره بالأسرار الزوجيَّة والأمور الخاصَّة التي تحصل بينه وبين زوجته.
- عدم ستر العورات، فقد رَأَى رسول الله صلى الله عليه وسلم رَجُلًا يَغْتَسِلُ بِالْبَرَازِ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ:" إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَلِيمٌ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ، فَإِذا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ". رواه أبو داود[١].

ومن أروع الأمثلة على الحياء حياء ابنة شعيب؛ قال تعالى: ﴿فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

قال الشيخ السعدي في تفسيره: فجاءته ﴿تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ﴾وهذا يدلُّ على كرم عنصرها، وخُلُقها الحسن، فإنَّ الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصًا في النساء، ويدلُّ على أنَّ موسى- عليه السلام- لم يكن فيما فعله من السقي بمنزلة الأجير والخادم الذي لا يُستحيي منه عادة، وإنَّما هو عزيز النفس، رأتْ من حُسْن خُلُقه ومكارم أخلاقه؛ ما أوجب لها الحياء منه، ف ﴿قَالَتۡ﴾ له:﴿إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَا﴾ أي: لا لِيَمُنَّ عليك، بل أنت الذي ابتدأتنا بالإحسان، وإنَّما قصْده أن يكافئك على إحسانك، فأجابها موسى، عليه السلام.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ﴾ مِن ابتداء السبب المُوجِب لهربه، إلى أن وصل إليه ﴿قَالَ﴾ مُسكِّنًا روعه، جابرًا قلبه: ﴿لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾أي: ليذهب خوفك وروعك، فإنَّ الله نجَّاك منهم، حيث وصلت إلى هذا المحل، الذي ليس لهم عليه سلطان[٣].

---

(١) رواه أبو داود في سننه (٤/ ٣٩) برقم (٤٠١٢) كتاب الحمام باب النهي عن التعري. والنسائي في سننه (١/ ٢٠٠) برقم (٤٠٦) كتاب الغسل والتيمم باب الاستتار عند الاغتسال. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن النسائي (٢/ ٥٠).

(٢) القصص: ٢٥.

(٣) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦١٤).



والخلاصة: كما قال الإمام ابن القيم- رحمه الله-: خُلُق الحياء من أفضل الأخلاق وأجلِّها وأعظمها قدرًا وأكثرها نفعًا، بل هو خاصَّة الإنسانية، فمَن لا حياء فيه فليس معه من الإنسانيَّة إلَّا اللحم والدم وصورتهما الظاهرة، كما أنَّه ليس معه من الخير شيء[١].

إذا قلَّ ماءُ الوجهِ قلَّ حياؤه　　　ولا خيرَ في وجهٍ إذا قلَّ ماؤه
حياءَكَ فاحفظْه عليك وإنَّما　　　يدلُّ على وجهِ الكريمِ حياؤه[٢]

(١) ينظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢/ ٧٨٨). مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية (٦٩١ هـ - ٧٥١ هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن حسن بن قائد (وفق المنهج المعتمد من بكر بن عبد الله أبو زيد - رحمه الله -)، راجعه: مُحَمَّدْ أَجْمَل الإصْلاحِي، سليمان بن عبد الله العمير، الناشر: دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، الطبعة: الأولى، ١٤٣٢هـ.

(٢) ينظر: لباب الآداب لأسامة بن منقذ (١/ ٢٨٥) بتقديم البيت الثاني على الأول. لباب الآداب، المؤلف: أبو المظفر مؤيد الدولة مجد الدين أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشيزري (المتوفى: ٥٨٤هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

١٩ ربيع الآخر
كنتم خير أمّة أُخرجت للنَّاس

لقد أرسل الله خير رسله صلى الله عليه وسلم بأفضل كتبه إلى خير أمّة أُخرِجت للناس، ولكنَّ ذلك مرهون بأن تقوم الأمّة بمُقوِّمات خيريَّتها من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

يقول الله تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾(١).

يقول الشيخ السعدي: يمدح الله تعالى هذه الأمَّة ويُخبِر أنَّها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المُستلزِم للقيام بكلِّ ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ المُتضمِّن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك، وبذل المستطاع في ردِّهم عن ضلالهم وغيِّهم وعصيانهم، فبهذا كانوا خير أمَّة أُخرِجت للناس، لَمَّا كانت الآية السابقة وهي قوله: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾(٢) ؛ أمرًا منه تعالى لهذه الأمَّة، والأمر قد يمتثله المأمور ويقوم به، وقد لا يقوم به، أخبر في هذه الآية أنَّ الأمَّة قد قامت بما أمرها الله بالقيام به، وامتثلت أمر ربها واستحقَّت الفضل على سائر الأمم(٣).

إنَّ المعاصي والمنكَرات هي الداء العضال والوباء القتَّال الذي به خراب المجتمعات وهلاكها، وإنَّ التفريط في تغيير المنكرات ومكافحتها والقضاء عليها من أعظم أسباب حلول العقاب ونزول العذاب، فعن أم المؤمنين زينب بنت جحش- رضي الله عنها- أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعًا وهو يقول:" لا إله إلَّا الله، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فُتِح اليوم من ردم يأجوج ويأجوج مثل هذه، وحلَّق بإصبعه الإبهام والتي تليها، فقلت: يارسول الله؛ أنهلك وفينا الصالحون؟ قال صلى الله عليه وسلم: نعم؛ إذا كثُرَ الخَبَثُ". متفق عليه(٤). والخبث هو الفسوق والفجور.

---

(١) آل عمران: ١١٠.

(٢) آل عمران: ١٠٤.

(٣) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٤٣).

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٣٨) برقم (٣٣٤٦) كتاب أحاديث الأنبياء باب قصة يأجوج ومأجوج. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٠٧) برقم (٢٨٨٠) كتاب الفتن وأشراط الساعة باب اقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج.



ويقول النبي صلى الله عليه وسلم:" إنَّ الله لا يُعذِّب العامَّة بعمل الخاصَّة حتَّى يروا المنكر بين ظهرانَيْهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك عذَّب الله الخاصَّة والعامَّة". رواه أحمد(١).

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم أيضًا:" ما مِن قومٍ يُعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يُغيِّروا ثم لا يُغيِّروا إلَّا يوشك أن يعمَّهم الله بعقاب." رواه أبو داود(٢).

وكتب عمر بن عبد العزيز- رحمه الله تعالى- إلى بعض عُمَّاله: أما بعد؛ فإنَّه لم يظهر المنكر في قوم قط، ثم لم ينههم أهلُ الصلاح بينهم إلَّا أصابهم الله بعذاب من عنده، أو بأيدي مَن يشاء مِن عباده، ولا يزال الناس معصومين من العقوبات والنقمات ما قُمِع أهل الباطل واستخفى فيهم بالمحارم(٣).

وعدم التناهي عن المنكر بين المسلمين مِن أعظم أسباب اللعن والطرد والإبعاد عن رحمة أرحم الراحمين، يقول النبي صلى الله عليه وسلم:" إنَّ أوَّل ما دخل النقص على بني إسرائيل؛ كان الرجل يلقى الرجل فيقول: يا هذا؛ اتق الله؛ ودعْ ما تصنع، فإنَّه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ثم قال: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾(٤)، ثم قال صلى الله عليه وسلم:" واللهِ لتأمرُنَّ بالمعروف، ولتنهوُّنَّ عن المنكر، ولتأخذُنَّ على يد الظالم، ولتأطرُنَّه على الحق أطرًا، ولتقصرُنَّه على الحق قصرًا، أو ليضربَنَّ الله بقلوب بعضكم على بعض، ثم ليلعننَّكم كما

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٩/ ٢٥٨) برقم (١٧٧٢٠). والحديث ضعفه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (٧/ ١٠٨).

(٢) رواه أبو داود في سننه (٤/ ١٢٢) برقم (٤٣٣٨) كتاب الملاحم باب الأمر والنهي. والحديث صححه الألباني كما في وضعيف سنن أبي داود (٩/ ٣٣٨).

(٣) ينظر: سيرة عمر بن عبد العزيز (ص: ١٤٣). سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، المؤلف: عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع، أبو محمد المصري (المتوفى: ٢١٤هـ)، المحقق: أحمد عبيد، الناشر: عالم الكتب - بيروت – لبنان، الطبعة: السادسة، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٤) المائدة: ٧٨- ٧٩.



لعنهم". رواه أبو داود والترمذي[١]، ويقول نبيُّنا صلى الله عليه وسلم:" أنتم توفون سبعين أمَّة، أنتم خيرها وأكرمها على الله". رواه الترمذي وابن ماجه[٢].

والله سبحانه وتعالى عندما شرط لخيريَّة هذه الأمَّة التزامها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد جعله فرضًا فقد قال سبحانه:﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٣].

والحديث عن خيريَّة الأمَّة وبيان فضلها ومكانتها يمنح أبناءها الثقة في مواجهة التحدِّيات، ويكون دافعًا لهم نحو التقدُّم والتحضُّر، والجدِّ والاجتهاد في العمل والإنتاج، وإن مِن أوجب الواجبات على الأمَّة الآن أن تسعى جاهدة لتحقيق الخيريَّة التي ميَّزها الله بها، وأن تتحمَّل مسئوليَّتها، وتؤدِّي رسالتها على الوجه الأكمل.

أُمَّتِي يَا خَيْرَ أُمَّهْ ... انْهَضِي عَزْمًا وَهِمَّهْ
رَغْمَ جُرْحٍ وَمُلِمَّهْ ... وَالْخُطُوبِ الْمُدْلَهِمَّهْ
اخْلَعِي ثَوْبَ السُّبَاتْ ... وَاجْمَعِي شَمْلَ الشَّتَاتْ
وَاجْعَلِي بَعْثَ الْحَيَاةْ ... فِي خَلاَيَاكِ مُهِمَّهْ[٤]

يقول الإمام الغزالي: إنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله به النبيّين أجمعين، ولو طُوي بساطه وأُهمل عمله وعلمه لتعطَّلت النبوة، واضمحلت

(١) رواه أبو داود في سننه (٤/ ١٢١) برقم (٤٣٣٦) كتاب الملاحم باب الأمر والنهي. وابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٢٧) برقم (٤٠٠٦) كتاب الفتن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والحديث ضعفه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٩/ ٣٣٦).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٣/ ٢١٩) برقم (٢٠٠١٥). والترمذي في جامعه (٥/ ٢٢٦) برقم (٣٠٠١) أبواب تفسير القرآن باب ومن سورة آل عمران. وابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٣٣) برقم (٤٢٨٨) كتاب الزهد باب صفة أمة محمد صلى الله عليه وسلم. والحديث حسنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٩/ ٢٨٨).

(٣) التوبة: ٧١.

(٤) الأبيات من قصيدة بعنوان يا خير أمة. ينظر: https://www.alukah.net/literature_language/0/42060/.

الديانة، وعمَّت الفترة، وفشت الضلالة وشاعت الجهالة، وانتشر الفساد، واتَّسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد(١).

ومع ذلك فالخيريَّة ثابتة لهذه الأمة ولا تنتفي عنها إطلاقًا، فيُوجد دائمًا في هذه الأمَّة مَن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، صحيح أنَّ الخيريَّة في هذه الأمَّة قد قلَّت كثيرًا عمَّا كانت عليه إلَّا أنَّها موجودة، فلا تزال طائفة من هذه الأمَّة قائمة بأمر الله تعالى حتَّى قيام الساعة.

ولقد كان السلف الصالح يرون مَن لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر في عداد أموات الأحياء، سُئل حذيفة بن اليمان- رضي الله عنه- عن ميت الأحياء قال:" مَن لا يُنكر المُنكَر بيده ولا بلسانه ولا بقلبه "(٢)، وقيل لابن مسعود- رضي الله عنه-: مَن ميت الأحياء؟ فقال:" الذي لا يعرف معروفًا، ولا يُنكر مُنكَرًا "(٣).

فإنكار المُنكَر ليس وقفًا على أناس بعينهم، بل هو وظيفة كل مسلم قادر على ذلك بيده ولسانه، وبحسب المصلحة الشرعية، وأمَّا الإنكار بالقلب فلا يُعذَر أحدٌ في تركه، قال صلى الله عليه وسلم:" مَن رأى منكم مُنكَرًا فلْيغيِّرْه بيده، فإنْ لم يستطعْ فبلسانه، فإنْ لم يستطعْ فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان". رواه مسلم(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: فأمَّا الإنكار بالقلب فيجب بكل حال، إذ لا ضرر في فعله، ومَن لم يفعله فليس بمؤمن، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم:" وذلك أضعف الإيمان"، قال:" وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل". رواه مسلم(٥). (٦)

(١) ينظر: إحياء علوم الدين (٢/ ٣٠٦).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ٧٢) برقم (٧١٨٤).

(٣) ذكره ابن القيم في مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٣/ ٢٤٨).

(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٦٩) برقم (٤٩) كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان.

(٥) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٦٩) برقم (٥٠) كتاب الإيمان باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان.

(٦) ينظر: مجموع الفتاوى (٢٨/ ١٢٧). مجموع الفتاوى، المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٦هـ/١٩٩٥م.



ودرجة الإنكار بالقلب تستلزم المفارقة؛ بمعنى أن يُفارق المُنكَر بقلبه، ويُفارق أهل المُنكَر ومُنكَرهم كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ﴾(١).

ذَهَبَ الرِّجَالُ المُقتدَى بفعالِهم والمنكِرون لكلِّ أمرٍ مُنكَرِ
وَبَقِيتُ فِي خُلْفٍ يُزَكِّي بعضُهم بعضًا ليدفعَ معورٌ عن معورِ(٢)

والخلاصة: أنَّ الأمَّة يجب عليها ألَّا تتخلَّى عن ريادتها ولا عن سيادتها وخيريَّتها، وأن تحرص كلَّ الحرص على القيام بمُقوِّمات هذه الخيريَّة؛ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتمسُّك بالإيمان بالله.

(١) النساء: ١٤٠.

(٢) ديوان أبي الأسود الدؤلي (ص: ٣٩٧). ديوان أبي الأسود الدؤلي، صنعه: أبو سعيد الحسن السكري (المتوفى: ٢٩٠هـ)، تحقيق: محمد حسن آل ياسين، الناشر: دار ومكتبة الهلال - بيروت، لبنان، الطبعة: الثانية، ١٩٩٨م - ١٤١٨هـ. معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (٤/ ١٤٧٣).



٢٠ ربيع الآخر

كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسؤولٌ عن رعيَّته

إنَّ من القيم العظيمة التي أرساها الإسلام ودعا إليها، وربَّى عليها أتباعه؛ تحمُّل المسؤولية، خاطب بذلك الأفراد والمجتمع والأمُّة كلَّها، وجعلها سببًا للحياة السعيدة الطيِّبة، والنجاة في الآخرة.

فتزكية النفس والمحافظة عليها مسؤوليَّة، والقيام بالحقوق الأسريَّة مسؤوليَّة، وإتقان الأعمال والقيام بالواجبات الوظيفيَّة مسؤوليَّة، وتقلُّد المناصب والمراكز الهامَّة مسؤوليَّة، وهكذا المسؤوليَّة في حياتنا تظهر في جميع سلوكيَّاتنا وتصرُّفاتنا، رجالًا ونساءً، شبابًا وشيوخًا، حُكَّامًا ومحكومين، وأخصُّ ما يُوصف به الإنسان البالغ الرشيد أنَّه مسؤول.

قال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[١]، **وقال تعالى** ﴿وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾[٢]، فكلُّ عملٍ يُكلَّف به المسلم شرعًا؛ فهو مسؤوليَّة ينبغي عليه القيام بها على أحسن أحسن حال، فالمسؤوليَّة فرديَّة لأنَّ التكليف فرديٌّ، والحساب كذلك يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾[٣].

وإنَّ من كمال هذه الشريعة اهتمامها بجميع شؤون الحياة التي تتعلَّق بالإنسان، ولهذا أمرت كلَّ فرد بالقيام بمسئوليَّاته على قدر موقعه ومكانه، وعن ابن عمر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله- صلى الله عليه وسلم-:" كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ ومَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ". رواه البخاري ومسلم[٤].

في هذا الحديث يُبيِّن صلى الله عليه وسلم كثيرًا من أصناف المسئولين عن رعاية المجتمع المسلم: فيبدأ بالإمام، والإمام كلُّ مَن يُقتدَى به، وكلُّ مسئولٍ قلَّت مسئوليَّته أو كثُرت، ولا شكَّ أنَّ الإمام العامَّ هو أولى بتلك المسئوليَّة، لكمال مكانته، وعلو شأنه.

---

(١) الحجر: ٩٢،٩٣.

(٢) الصافات: ٢٤.

(٣) مريم: ٩٣ — ٩٥.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥) برقم (٨٩٣) كتاب الجمعة باب الجمعة في القرى والمدن. ومسلم في صحيحه (٢/ ١٤٥٩) برقم (١٨٢٩) كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم.



فالإمام العامُّ وهو المسئول عن الأمَّة، والمسئول عن رعيّته، فيسوسهم سياسة حكيمة في شؤونهم وأمورهم، سياسة تفرض من الصلاح قدر الاستطاعة.

ومن حقِّ الرعيَّة عليه: حل مشاكلهم، وما يواجهونه وما يعانونه من مشاكل، بقدر الاستطاعة والإمكان، ومن حقِّهم عليه: تأمين حاجاتهم كلِّها، والسعي في تحقيقها، وتسهيل المهمة قدر ما استطاع، ومن حقِّهم عليه: أن يسوسهم بالعدل في المعاملة والرعاية، ولا يُفرِّق بينهم بغير سبب شرعي؛ فإنَّ العدل سبب لصلاح المجتمع، والعدل سبب لصلاح الأمَّة، وانتظام الدولة وشؤونها، وبالعدل تتآلف القلوب، وتجتمع الكلمة، ويقلُّ الشر والفساد .

والإمام العادل له في هذا العدل فضل كبير، وشأن عظيم، فالنبي صلى الله عليه وسلم جعل الإمام العادل أحد السبعة الذين يُظلُّهم الله في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلَّا ظلُّه، فقال صلى الله عليه وسلم: " سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تحت ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ" رواه البخاري(١).

وجعل الإمام العادل أحد الثلاثة المُستجاب دعاؤهم، يقول صلى الله عليه وسلم:" ثَلَاثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمُ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حِينَ يُفْطِرُ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا الله فَوْقَ الْغَمَامِ وَتُفَتَّحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الله: وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ". رواه الترمذي وابن ماجه(٢).

والرجل راعٍ في بيته، ومسئول عن رعيته، نعم، هو راعٍ في بيته؛ على زوجته، وعلى أولاده من بنين وبنات، وعلى مَن تحت يده ممن له عليهم الولاية مِن إخوة وأخوات صغار، -وكذلك خادم بيته، فهو راع ومسئول عن رعيته، مسئول عنهم، فالأب أوَّلًا مأمور بأنْ يؤدِّب أبناءه الأدب الخدم- بأن يُربِّيهم على معرفة ربِّهم ونبيِّهم ودينهم، على العقيدة الصافية، مأمور بأنْ يحثَّهم على الأوامر الشرعيَّة للقيام بها، يقول الله جلَّ وعلا: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾(٣).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٣٣) برقم (٦٦٠) كتاب الأذان باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد. ومسلم في صحيحه (٢/ ٧١٥) برقم (١٠٣١) كتاب الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة. وهو عندهما بلفظ: "يظلهم الله في ظله"، ولم أقف عليها عندهما بلفظ: "تحت ظله".

(٢) رواه أحمد في مسنده (١٣/ ٤١٠) برقم (٨٠٤٣). والترمذي في جامعه (٤/ ٦٧٢) برقم (٢٥٢٦) أبواب تفسير القرآن باب ما جاء في صفة الجنة ونعيمها. وابن ماجه في سننه (١/ ٥٥٧) برقم (١٧٥٢) كتاب الصيام باب في الصائم لا ترد دعوته. والحديث ضعفه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٤/ ٢٥٢).

(٣) طه: ١٣٢.



ويقول الله تعالى عن إسماعيل- عليه السلام-: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾(١).

ويقول صلى الله عليه وسلم:" مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعٍ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ". رواه أبو داود(٢).

حَرِّضْ بنيك على الآدابِ في الصِّغَر ... كيما تقرَّ بهم عيناك في الكِبَر
وإنَّما مثل الآدابِ تجمعُها ... في عِنفُوانِ الصِبا كالنقش في الحَجَر
هي الكنوز التي تنمو ذخائرُها ... وَلَا يُخافُ عليها حَادِثُ الغِيَر
الناس اثنان: ذُو عِلْمٍ وَمُسْتَمِعٍ ... وَاعٍ وَسَائِرُهُمْ كاللَّغْو والعَكَر(٣)

ويقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾(٤).

يقول الشيخ السعدي في تفسيره: يا مَنْ مَنَّ الله عليهم بالإيمان، قوموا بلوازمه وشروطه ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة، ووقاية الأنفس بإلزامها أمر الله، والقيام بأمره امتثالًا ونهْيِه اجتنابًا، والتوبة عمَّا يُسخِط الله ويُوجِب العذاب، ووقاية الأهل والأولاد بتأديبهم وتعليمهم، وإجبارهم على أمر الله، فلا يسلم العبد إلَّا إذا قام بما أمر الله به في نفسه، وفيما يدخل تحت ولايته من الزوجات والأولاد وغيرهم ممَّن هم تحت ولايته وتصرُّفه، ووصف الله النار بهذه الأوصاف، ليزجر عباده عن التهاون بأمره فقال:﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ كما قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾(٥)، ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾أي: غليظة أخلاقهم، عظيم انتهارهم، يُفزِعون بأصواتهم، ويُخيفون بمرآهم، ويُهينون أصحاب النار بقوَّتهم، ويمتثلون فيهم أمر الله، الذي حتم عليهم العذاب، وأوجب عليهم

---

(١) مريم: ٥٥.

(٢) رواه أبو داود في سننه (١/ ١٣٣) برقم (٤٩٥) كتاب الصلاة باب متى يؤمر الغلام بالصلاة. والحديث قال عنه الألباني: "حسن صحيح" كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (١/ ٤٩٥).

(٣) ينظر: مجمع الحكم والأمثال في الشعر العربي (١/ ١٨، بترقيم الشاملة آليا).

(٤) التحريم: ٦.

(٥) الأنبياء: ٩٨.

شدة العقاب، ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ وهذا فيه أيضًا مدح للملائكة الكرام، وانقيادهم لأمر الله، وطاعتهم له في كل ما أمرهم به[١].

والمرأة المسلمة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، نعم، ترعى أبناءها وبناتها، وتُعين الأب على التربية والتوجيه، وكلما غفل الأب عن شيء؛ فإنَّ الأمَّ تقوم مقامه، فتوجِّه الأبناء والبنات توجيهًا سليمًا، فتُرشدهم إلى الخير، وتحثُّهم عليه، والمرأة المسلمة في بيتها عونٌ لزوجها على برِّ أبويه، وعونٌ لزوجها على صلة رحمه، وعونٌ لزوجها على كلِّ خُلُق كريم.

وبعض النساء تُفرِّق بينه وبين أبويه، وبينه وبين إخوته وأخواته، وبينه وبين أرحامه، أمَّا المرأة الطيِّبة فهي امرأة صالحة، تُؤلِّف وتجمع وتُوفِّق، وتسعى في الخير جهدها، هذه المرأة الصالحة بركة على زوجها، وعلى بيتها، وعلى أولادها، وعلى الأسرة جميعًا.

والخادِمُ أي: العَبدُ، ويَدخُلُ فيه الأجيرُ عُمومًا في مالِ سَيِّدِه؛ راعٍ بالقيامِ بحِفظِ ما في يَدِه مِنه وخِدمتِه، وهو مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه.

فكُلُّكم راعٍ، وكُلُّكم مَسؤولٌ عن رَعيَّتِه، فعمَّمَ- صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ- في أوَّلِ الحديثِ، ثمَّ خصَّصَ، وَقسَّم الخُصوصيَّةَ إلى جِهةِ الرَّجُلِ وجِهةِ المرْأةِ، وهَكَذا، ثمَّ عمَّمَ آخِرًا تأْكيدًا لِبَيانِ الحكْمِ أوَّلًا وآخِرًا.

والخلاصة: أنَّ الناس جميعا صغيرهم وكبيرهم؛ من علتْ رُتبُه أو نزلت؛ منوط في عنقه مسئوليَّة، وسوف يُسأل عنها يوم القيامة بين يدي ربِّه سبحانه وتعالى، لذا يجب أن يتَّقي الله فيما استرعاه الله تعالى إياه كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: " ما من راع يسترعيه الله رعيَّة يموت يوم يموت وهو غاشٌّ لرعيَّته إلَّا حرم الله عليه الجنة " متفق عليه[٢].

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٨٧٤).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٩/ ٦٤) برقم (٧١٥٠) كتاب الأحكام باب من استرعي رعية فلم ينصح. ومسلم في صحيحه (١/ ١٢٥) برقم (١٤٢) كتاب الإيمان باب استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار.



٢١ ربيع الآخر

قل هو من عند أنفسكم

في هذه الأيام نمرُّ بأحداث عظام، وبلايا جسام، وفتن ومحن، وتبدُّل للحقائق، وسوء وظلم، وأمراض وأسقام، وقحط وجدب، وغلاء وعناء.

وهذا يجعل الناظر بعين البصر والبصيرة؛ ينظر إلى أسباب هذه البلايا والرزايا، فيا ترى ما سبب كثرة البلايا والفتن؟ والقحط والجدب؟ والأمراض والأسقام؟ والغلاء المتزايد؟

عند التأمُّل في آيات الله البينات نصل إلى حقيقة جليَّة، وبيان ظاهر، ممَّا يجعلنا نضع أيدينا على الداء، ومن ثم نسعى للعلاج.

من ذلك قول الله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(١)، فظهور الفساد في البر إمَّا أن يكون بالقحط، وقلة النبات كما قاله ابن عطية، وإمَّا أن يكون بنقصان البركة كما قاله ابن عباس- رضي الله عنهما-، وظهوره في البحر أي: البلاد التي على الأنهار بقلة مائها، وذلك كله: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ من المعاصي والآثام، فتحلُّ بهم العقوبة على شيء من أعمالهم لا على أعمالهم كلِّها، كلُّ ذلك لعلَّهم إلى ربهم يرجعون، وعن المعاصي يكُفُّون ويتوبون، ويقول ربنا تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا﴾(٢)، والظلم هنا شامل للمعاصي، وأعظم المعاصي الشرك. قال الله سبحانه: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٣).

يقول الشيخ السعدي في تفسيره: هذا تسلية من الله تعالى لعباده المؤمنين، حين أصابهم ما أصابهم يوم "أحد" وقُتل منهم نحو سبعين، فقال الله: إنكم ﴿قَدْ أَصَبْتُم﴾ من المشركين ﴿مِّثْلَيْهَا﴾ يوم بدر فقتلتم سبعين من كبارهم وأسرتم سبعين، فلْيهُن الأمر ولْتخِفَّ المصيبة عليكم، مع أنكم لا تستوون أنتم وهم، فإن قتلاكم في الجنة وقتلاهم في النار، ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ أي: من أين أصابنا ما أصابنا وهُزمنا؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ حين تنازعتم وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، فعودوا

---

(١) الروم: ٤١.

(٢) الكهف: ٥٩.

(٣) آل عمران: ١٦٥.

على أنفسكم باللوم، واحذروا من الأسباب المردية، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فإياكم وسوء الظن بالله، فإنه قادر على نصركم، ولكن له أتمُّ الحكمة في ابتلائكم ومصيبتكم ﴿ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖ﴾[(١)][(٢)].

في أُحد عبَّأ النبي صلى الله عليه وسلم الناس للقتال، وحدَّد مواقع جيشه، وكان من حنكته العسكرية أن اختار من جيشه خمسين رجلًا يجيدون الرمي بالنبل، وأمَّر عليهم عبد الله بن جبير- رضي الله عنه-، وأصدر أوامره المشدَّدة الصريحة للرماة، فقال: انضحوا الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تُعينونا، لا تبرحوا وإن تخطَّفنا الطير، وأكَّد على ابن جبير- رضي الله عنه-، فقال:" إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك، لا نُؤتينَّ من قِبَلك ".

ويلتقي الجيشان، وتدور رحى الحرب، ويضرب السيف القنا، فيتنزَّل مدد الله وينصر جنده، ويُجيد الرماة دورهم في حماية الظهر وردِّ خيل المشركين، وألقي الرعب في المشركين، فهربوا فزعين في مشهد يصوِّره لك البراء بن عازب- رضي الله عنه- حيث قال:" فلما لقينا هربوا حتى رأيت النساء يشتدِدن في الجبل، رفعنَ عن سوقهنَّ، قد بدت خلاخلهنَّ، فلما رأى الرماة المشهد أخذوا يقولون: الغنيمة الغنيمة، ونزلوا عن مواقعهم، فصاح بهم عبد الله بن جبير- رضي الله عنه-: مكانكم، عهد رسول صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا، فأبوا إلَّا النزول[(٣)][(٤)].

نزلوا وهم يظنون أن الحرب قد وضعت أوزارها، ناسين بذلك الأوامر المشدَّدة من النبي- صلى الله عليه وسلم- بلزوم المواقع وعدم البروح عنها.

لقد عصوا بذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وتركوا حماية الظهر، فوقعت السُّنَّة الإلهية عليهم، السُّنَّة لا تُحابي أحدًا ولا تُداريه، فدارت الدائرة عليهم، وانقلبت رحى المنون إلى دارهم، فكانت نتيجة هذه المعصية أن قُتِل من الصحابة سبعون، وكان يوم بلاء وتمحيص، خلص فيه

---

(١) محمد: ٤.

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٥٦).

(٣) ينظر: تاريخ الإسلام (١/ ١٠٦). تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، المحقق: الدكتور بشار عوّاد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، ٢٠٠٣م.

(٤) رواه البخاري في صحيحه (٥/ ٩٤) برقم (٤٠٤٣) كتاب المغازي باب غزوة أحد.



المشركون إلى رسول صلى الله عليه وسلم، فرُجم بالحجارة حتى وقع لشقِّه، وأصيبت رباعيته، وشُجَّ وجهه، وكلمت شفته، فدخل في وجنته حلقتان من حلَق المِغْفَر.

فالمعاصي لها أكبر الأثر على قلب المسلم، فإنها لا تزال تطبق على قلبه حتى تغلفه بغلاف من الران، فلا يسمع حقًّا، ولا يميز هدى من ضلال، ولا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلَّا ما كان موافقًا لهواه.

فالقلب ينتابه مرض معنوي تمامًا كما يصيبه المرض الحسي، فإذا ما أصيب بهذا المرض المعنوي من شرك أو نفاق أو بدعة أو إصرار على معصية وغفلة قلَّ نفعه أو تعطَّل عمله، وهذا مزلق خطير، وبلاء كبير، ويزيد من خطورته كون هذا المرض خفيًّا قد لا يشعر به صاحبه، وإن علم به صعب عليه الصبر على مرارة الدواء، إذ لا صبر لهذا الصنف على مخالفة الهوى الذي هو علاجه، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾[(١)]، وكان ميمون بن مهران يقول: رحم الله عبدًا قال لنفسه: ألستِ صاحبة كذا؟ ألست صاحبة كذا؟ ثم ذمَّها، ثم خطمها، ثم ألزمها كتاب الله فكان لها قائدًا[(٢)].

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: " تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ، وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ" رواه مسلم[(٣)].

لا تحقرنَّ من الذنوبِ صغيرًا ... إنَّ الصغيرَ غدًا يعودُ كبيرًا
إنَّ الصغيرَ وإنْ تقادمَ عهدُهُ ... عندَ الإلهِ مُسطَّرٌ تسطيرًا
فازجرْ هواك عن البطالةِ لا تكنْ ... صعبَ القيادِ وشمِّرْ تشميرًا
إنَّ المُحبَّ إذا أحبَّ إلهَهُ ... طارَ الفؤادُ وأُلهِمَ التفكيرًا
فاسألْ هدايتَكَ الإلهَ بنيَّةٍ ... فكفى بربِّكَ هاديًا ونصيرًا[(٤)]

---

(١) النازعات: ٤٠-٤١.

(٢) رواه الخرائطي في اعتلال القلوب (١/ ٢٨). اعتلال القلوب للخرائطي، المؤلف: أبو بكر محمد بن جعفر بن محمد بن سهل بن شاكر الخرائطي السامري (المتوفى: ٣٢٧هـ)، تحقيق: حمدي الدمرداش، الناشر: نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة-الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١٢٨) برقم (١٤٤) كتاب الإيمان باب بيان أن الإسلام بدأ غريبا وسيعود غريبا، وأنه يأرز بين المسجدين.

(٤) ينظر: تاريخ دمشق لابن عساكر (٢١/ ٣٠١). تاريخ دمشق، المؤلف: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، المحقق: عمرو بن غرامة العمروي، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، عام النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

إن مكة هي بلد الله الحرام، وإن الله تعالى قد أجاب نبيَّه إبراهيم الخليل- عليه السلام- بأن يجعل مكة بلدًا آمنًا، وأن يرزق أهلها من الثمرات لكن بشرط مَن آمن بالله، وهذا البلد على حرمته، وعلو منزلته، قد عاقب الله أهله وأنزل فيهم قرآنًا لما كذَّبوا الرسول صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾[(١)].

والخلاصة: إذا أرادت الأمَّة النجاح والفلاح، والفوز والسعادة، والهناءة والعيش الرغيد؛ فلن يتحقق لها ذلك إلَّا بالعودة إلى الله وتصحيح المسار، وهذا الأمر ليس أمرًا اختياريًّا، بل واجبًا شرعيًّا، فلا الخطط الاقتصادية، ولا رفع دخل الفرد، ولا التفكير والتخطيط؛ ينفع مع العصيان، ومبارزة الديَّان، ومحاربة القوِّي المنَّان، فما أهون الخلق على الله إذا هم عصوه، فالعودة إلى الله مهما تكرَّرت الذنوب هو المخرج من هذا التيه الذي نعيشه، وهذه البلايا المتتابعات.

---

(١) النحل: ١١٢.



٢٢ ربيع الآخر
وجعلنا الليل لباسًا

النوم آية من آيات الله، يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[١]، ويقول جلَّ في علاه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا﴾[٢].

يقول الشيخ السعدي رحمه الله: أي: من رحمته بكم ولطفه؛ أن جعل الليل لكم بمنزلة اللباس الذي يغشاكم، حتَّى تستقرُّوا فيه وتهدؤوا بالنوم وتسبت حركاتكم، أي: تنقطع عند النوم، فلولا الليل لما سكن العباد، بل يستمرُّون في حركتهم وتصرُّفهم، فيضرُّهم ذلك غاية الضرر، ولو استمر أيضًا الظلام لتعطَّلت عليهم معايشهم ومصالحهم، ولكنه جعل النهار نشورًا، ينتشرون فيه لتجاراتهم وأسفارهم وأعمالهم، فيقوم بذلك ما يقوم من المصالح[٣].

ويقول أيضًا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ أي: راحة لكم، وقطعًا لأشغالكم، التي متى تمادت بكم أضرَّت بأبدانكم، فجعل الله الليل والنوم يغشى الناس لتنقطع حركاتهم الضارَّة، وتحصل راحتهم النافعة[٤].

فالمتأمِّل لهذه الآيات يجد أنها جاءت في سياق الإنعام والامتنان، الأمر الذي يجعل المؤمن المتدبِّر يقف عند هذا الامتنان وقفة إجلال لله وتعظيم، وَلِذَا كَانَ النَّوْمُ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي يَفْرَحُ بِهَا الإِنْسَانُ، وَالأَرَقُ مِنَ النِّقَمِ الَّتِي يُبْتَلَى بِهَا، وَمَنْ لا يَنَامُ أَبَدًا لا يَلْبَثُ أَنْ يَمُوتَ.

وَالأَصْلُ أَنَّ اللهَ تَعَالَى جَعَلَ اللَّيْلَ لِلنَّوْمِ وَالهُدُوءِ وَالسُّكُونِ، وَجَعَلَ النَّهَارَ لِلسَّعْيِ وَالحَرَكَةِ وَالكَسْبِ، فَسُكُونُ اللَّيْلِ وَظُلْمَتُهُ يَدْعُوَانِ لِلْهُدُوءِ وَالنَّوْمِ، وَنُورُ النَّهَارِ وَصَخَبُهُ يَدْعُوَانِ لِلنَّشَاطِ وَالاسْتِيقَاظِ، وَهَذِهِ السُّنَّةُ الرَّبَّانِيَّةُ آيَةٌ مِنْ آيَاتِهِ سُبْحَانَهُ فِي الأَرْضِ وَمَا عَلَيْهَا مِنْ أَحْيَاءٍ، حَتَّى كَانَتْ آيَةً مِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ؛ قال تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ

---

(١) الروم: ٢٣.

(٢) الفرقان: ٤٧.

(٣) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٥٨٤).

(٤) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٩٠٦).



حُسْبَانًاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[١]، وقال أيضًا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[٢].

وبرغم أن الإنسان يقضي حوالي ثلث حياته نائمًا؛ إلَّا أنَّ أكثر الناس لا يعرف الكثير عن النوم، ولا يعرف لماذا ينام ؟!

فهناك اعتقاد سائد بأنَّ النوم عبارة عن خمول في وظائف الجسم الجسديَّة والعقليَّة يحتاجه الإنسان لتجديد نشاطه.

والواقع المُثبَت علميًّا خلاف ذلك تمامًا، حيث إنه:

– يحدث خلال النوم العديد من الأنشطة المُعقَّدة على مستوى المخ والجسم بصفة عامَّة، وليس كما يعتقد البعض، بل على العكس، فإنَّ بعض الوظائف تكون أنشط خلال النوم كما أنَّ بعض الأمراض تحدث خلال النوم فقط وتختفي مع استيقاظ المريض، وخلال هذا الوقت الطويل تحدث العديد من التغيُّرات والوظائف العضويَّة الهامَّة للجسم من إعادة بناء لأنسجة الجسم وإفراز هرمونات وغيرها.

– يحصل الكثير من أعضاء الجسم على راحته كالقلب والدماغ وغيرهما.

وآليَّة النوم عمليَّة مُعقَّدة ترتبط فيها مختلف الأعضاء ارتباطًا وثيقًا، فعندما يكون الإنسان مستيقظًا فإنَّ المخ يكون لديه نشاط كهربائيٌّ مُعيَّن، ومع حلول النوم يبدأ هذا النشاط بالتغيُّر، فالنائم يمرُّ خلال نومه بعدَّة مراحل من النوم، لكلٍّ منها دورها، فهناك:

– المرحلة الأولى والثانية: ويكون النوم خلالهما خفيفًا، ويبدآن مع بداية النوم، وبعد ذلك تبدأ المرحلة الثالثة والرابعة: أو ما يُعرَف بالنوم العميق، وهاتان المرحلتان مهمَّتان لاستعادة الجسم نشاطه، ونقص هاتين المرحلتين من النوم ينتج عنه النوم الخفيف غير المريح والتعب والإجهاد خلال النهار، وبعد حوالي تسعين دقيقة تبدأ مرحلة الأحلام أو ما يُعرَف بمرحلة حركة العينين السريعة، وتحدث الأحلام خلال هذه المرحلة، وهذه المرحلة مهمَّة لاستعادة الذهن نشاطه، والمرور بجميع مراحل النوم يُعرَف بدورة النوم الكاملة.

---

(١) الأنعام: ٩٦.

(٢) يونس: ٦٧.

وخلال نوم الإنسان الطبيعي (٦-٨ ساعات) يمرُّ الإنسان بحوالي ٤-٦ دورات نوم كاملات، وهنا تظهر عظيم نعمة الله تعالى في أنْ وصف النوم بـ (سباتًا) قال المفسرون: سباتًا أي: قطعًا للتعب والنصَب(١)، ممتدًّا في السكن والراحة(٢).

إنَّ آفَةَ السَّهَرِ قَدِ انْتَشَرَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ بُلْدَانِ المُسْلِمِينَ، وَسَلِمَ مِنْهَا الغَرْبِيُّونَ مَعَ أَنَّهُمْ أَسْبَقُ إِلَى التَّمَتُّعِ بِالطَّاقَةِ وَمُنْتَجَاتِ الحَضَارَةِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ جِدُّهُمْ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَشِدَّةُ مُحَاسَبَتِهِمْ عَلَى الإِخْلَالِ بِهَا، وَجِدُّهُمْ فِي مُحَافَظَتِهِمْ عَلَى صِحَّةِ أَبْدَانِهِمْ؛ ذَلِكَ أَنَّ لِقَلْبِ الفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ آثَارًا مَأْسَاوِيَّةً على صحة الإنسان.

إنَّ الأصل في السهر أنَّه مذموم إلَّا لمصلحة راجحة، وبشرط ألَّا يُخلَّ بشعيرة واجبة؛ لأنَّ عمومات القرآن دالَّة على أنَّ الله تعالى جعل الليل للسكن والنوم، وجعل النهار للحركة والانتشار، ثم جاءت السُّنَّة النبويَّة تعزِّز هذه الآية الربانيَّة في البشر لتجعلها وفق الفطرة السوية؛ فعن أبي برزة- رضي الله عنه- أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم" كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها". متفق عليه(٣). وعن عائشة- رضي الله عنها- قالت:" ما نام رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل العشاء ولا سمر بعدها". رواه أحمد(٤).

فهذا هديه الدائم- عليه الصلاة والسلام-، وما نُقِل من سهره وحديثه بعد العشاء فهو عارضٌ لحاجة دعت لذلك.

ولذا كان صلى الله عليه وسلم يذمُّ السّهر ويعيبه؛ كما روى أحمد عن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجدب لنا السمر بعد العشاء"(٥) أي: يعيبه ويذمُّه.

---

(١) انظر: "معجم مقاييس اللغة" لابن فارس ٣/ ١٢٥، "لسان العرب" لابن منظور ٢/ ٣٧ سبت.

(٢) انظر: معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٧٢.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١١٨) برقم (٥٦٨) كتاب مواقيت الصلاة باب ما يكره من النوم قبل العشاء. ومسلم في صحيحه (١/ ٤٤٧) برقم (٦٤٧) كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب استحباب التبكير بالصبح في أول وقتها، وهو التغليس، وبيان قدر القراءة فيها.

(٤) رواه أحمد في مسنده (٤٣/ ٣١٥) برقم (٢٦٢٨٠). وابن ماجه في سننه (١/ ٢٣٠) برقم (٧٠٢) كتاب الصلاة باب النهي عن النوم قبل صلاة العشاء. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٢/ ٢٤٧).

(٥) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٢١٢) برقم (٣٦٨٦). وابن ماجه في سننه (١/ ٢٣٠) برقم (٧٠٣) كتاب الصلاة باب النهي عن النوم قبل صلاة العشاء. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٢/ ٢٧٥).

ولم يرخِّص صلى الله عليه وسلم في السهر إلَّا لمن له حاجةٌ تدعو للسهر، كمن يُصلِّي أوَّل الليل يخشى ألَّا يقوم آخره فيُقدِّم الوتر، أو من كان مسافرًا؛ لأنَّ المسير في الليل أبرد وأهون، وفيه تُطوى الأرض، ويقلُّ العطش، أو لحديث يُذكِّر بالآخرة، كما فعل النّبيُّ- عليه الصلاة والسلام- غير مرَّة، أو لعمل لا بدَّ منه كحراسة أو نحوها من مصالح المسلمين، أو لعمل لا يمكن إنجازه إلَّا في اللّيل، أو لا يحتمل التأخير، أو لتفقُّد أحوال الرعيَّة من الإمام أو نُوَّابه، أو لحفظ الأمن والأعراض من أهل الحسبة والشُّرَط ونحوهم.

وأما السهر للحديث في الدنيا، ومؤانسة الأصحاب، والاستجمام في الاستراحات ونحوها، واتِّخاذ ذلك عادةً دائمةً لا تنقطع؛ فهو إلى الكراهة أقرب منه للإباحة، فإنْ ترتَّب عليه منكرٌ- وأغلبه كذلك؛ كالاجتماع على المعازف وما تبثُّه الفضائيَّات من سوء المشاهد، أو على الغيبة والقيل والقال- فهو سهرٌ مُحرَّمٌ واجتماعٌ على مُحرَّم، ويعظم خطره وتشتدُّ حرمته إنْ ترتَّب عليه تضييع الصلوات المفروضة؛ فقومٌ يسهرون الليل حتّى إذا ما بقي على الفجر إلَّا ساعةٌ أو بعضها ناموا إلى موعد الوظيفة، وقومٌ يواصلون سهرهم إلى نحر الضحى ثم ينامون إلى المساء، فيُضيِّعون صلاتي الظُّهر والعصر، وكلُّ أولئك على خطر عظيم بتضييعهم فرائض الله تعالى، واجتماعهم على ما حرَّم عليهم.

وفي مسند أحمد عن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لا سمر بعد الصلاة – يعني: العشاء الآخرة – إلَّا لأحد رجلين: مصلٍّ، أو مسافر"[١]. وقد أخذ به الإمام أحمد، فكره السمر في حديث الدنيا، ورخَّص فيه للمسافر.

والخلاصة: أنَّ النوم نعمة عظيمة مَنَّ الله بها على عباده تستوجب الشكر، وينبغي على الناس أن يحافظوا على هذه النعمة باستخدامها واستعمالها الاستعمال الأمثل، وألَّا يوظِّفوها إلَّا في طاعة الله تعالى، فكم من أناس حرموا من هذه النعمة لمرض أو لشيء أصابهم، فنسأل الله أن يديم علينا نعمه، وأن يجعلنا من القائمين بشكرها حق قيام.

(١) رواه أحمد في مسنده (٦/ ٩٠) برقم (٣٦٠٣).



٢٣ ربيع الآخر
اللهمَّ بارك لأمَّتي في بكورها

إنَّ من مفسدات القلب المانعة من نزول البركة في الرزق؛ والمورثة خسارة منافع دنيويَّة وأجور أخرويَّة، والتي تحرم الإنسان السرور أيامه ولياليه، وتكتب عليه الهمَّ الدائم والاكتئاب، ومرارة العيش، وضيق النفس، وقلق القلب، وفقدان الشعور بلذَّة الحياة وجمالها، والتي تنزع البركة من العمر؛ إضاعة باكورة اليوم، والنوم أول النهار، وتضييع صلاة الفجر.

فأكثر الناس ينامون قبل الفجر، ويمرُّ عليهم الفجر وهم نائمون، ويمرُّ أول النهار وهم نائمون، ويمرُّ وقت الضحى وهم نائمون، إلى الظهيرة وقت القيلولة، حيث يبدأ يومهم ونهارهم، لينتهي في منتصف الليل وقرب الفجر، ليبدأ ليلهم بعد ذلك، ويستمرُّ إلى وقت الظهر، وهكذا كل يوم، فلا يشعرون بقلوبهم ونفوسهم وأبدانهم؛ كيف أنها تضمحل، وتهزل وتضعف، وتصيبها الأمراض الحسيَّة والمعنويَّة ببطء، ولا يفيقون إلَّا بعد التبدُّل مرضًا وضيقًا وقلقًا.

روى أبو داوود عن صخر بن وداعة الغامدي- رضي الله عنه- عن النبي- صلى عليه وسلم- قال:" اللهمَّ بارك لأمَّتي في بكورها". وكان إذا بعث سريَّة أو جيشًا بعثهم من أول النهار، وكان صخر رجلًا تاجرًا، وكان يبعث تجارته من أول النهار، فأثرى وكثر ماله(١).

لقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم حريصًا على أمَّته، ومن حرصه عليها أنَّه كان يدعو لها بالبركة وسائر الخيرات، وفي هذا الحديث: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال:" اللَّهمَّ بارك لأمَّتي في بكورها"، والبكور هو صدر النهار وأوله، وهذا دعاءٌ معناه: اللَّهمَّ أكثِرْ لها الخير والبركة بالزيادة والنماء، حين تخرج لأعمالها في الصباح وأوَّل النهار.

يقول صخر- رضي الله عنه- رواي الحديث: وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم " إذا بعث سريّةً أو جيشًا "، بمعنى إذا أراد النبيُّ صلى الله عليه وسلم إرسالهم إلى الغزو، والسريَّة: الجزء من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة جنديٍّ،" بعثهم من أوَّل النهار"؛ وذلك لتحصيل تلك البركة التي تكون في أوَّله.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢٤/ ١٧٧) برقم (١٥٤٤٣). وأبو داود في سننه (٣/ ٣٥) برقم (٢٦٠٦) كتاب الجهاد باب في الابتكار في السفر. وابن ماجه في سننه (٢/ ٧٥٢) برقم (٢٢٣٦) كتاب التجارات باب ما يرجى من البركة في البكور. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٦/ ١٠٦).



ويقول عمارة بن حديد- وهو أحد رواة الحديث-:" وكان صخر رجلًا تاجرًا"، يعمل بالتّجارة،" وكان يبعث تجارته من أوَّل النهار"، عملًا بوصيَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم حتَّى ينال بركة دعاء النبيِّ- صلى الله عليه وسلم-، " فأثرى وكثر ماله " أي: فصار غنيًّا.

وفي الحديث: بيان حرص النبيِّ صلى الله عليه وسلم على الخير لأمَّته، وفيه: الترغيب في العمل بسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبما أوصى به، وأنَّ ذلك سببٌ للبركة.

يقول تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾[١]، قال الإمام الطبري في تفسيره: وأما الإبكار فإنه مصدر من قول القائل: أبكر فلان في حاجة فهو يبكر إبكارًا، وذلك إذا خرج فيها من بين مطلع الفجر إلى وقت الضحى فذلك إبكار، يقال فيه: أبكر فلان وبكر يبكر بكورًا[٢].

وذلك لأنَّ بين هذين كان وقت ابتداء العمل في زمن النبوة وما بعده إلى عصر قريب، ولهذا خُصَّ بالدعاء، قال ابن بطال: ما روي عنه صلى الله عليه وسلم:" اللهمَّ بارك لأمَّتي في بكورها " لا يدلُّ على أنَّ غير البكور لا بركة فيه، لأنَّ كل ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم فيه البركة، ولأمَّته فيه أكبر الأسوة، وإنما خَصَّ- صلى الله عليه وسلم- البكور بالدعاء بالبركة فيه من بين سائر الأوقات - والله أعلم- لأنه وقت يقصده الناس بابتداء أعمالهم، وهو وقت نشاط وقيام من دعة فخصه بالدعاء، لينال بركة دعوته جميع أمته[٣].

قال ابن عثيمين في شرح رياض الصالحين عند شرح هذا الحديث: لكن وللأسف؛ أكثرنا اليوم ينامون في أول النهار ولا يستيقظون إلا في الضحى فيفوت عليهم أول النهار الذي فيه بركة[٤].

وإنَّ من محاسن هذه الشريعة المطهرة: مراعاة جانب بركة البكور في مواضع كثيرة من أحكامها: منها: البكور في المحافظة على الجانب العباديِّ كالصلوات وغيرها.

---

(١) آل عمران: ٤١.

(٢) تفسير الطبري = جامع البيان (٥/ ٣٩١). تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ)، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر الدكتور عبد السند حسن يمامة، الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.

(٣) شرح صحيح البخارى لابن بطال (٥/ ١٢٤). شرح صحيح البخارى لابن بطال، المؤلف: ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: ٤٤٩هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

(٤) شرح رياض الصالحين (٤/ ٥٨٢).



ومنها: البكور في المحافظة على الجانب العلميّ كطلب العلم وتحصيله وقراءة القرآن والأذكار.

ومنها: البكور في المحافظة على جانب المعاملات الأخلاقيَّة كالبيع والشراء وغيرهما.

ومنها: التنصيص والدعاء لهذه الأمَّة في بكورها لنيل خيرَي الدنيا والآخرة.

فهذه المواطن وغيرها في الشريعة المُطهَّرة توحي بأهمِّيَّة بركة البكور لما فيه من إقامة الدين والدنيا، ولأن أعمار هذه الأمة المحمديَّة الإسلاميَّة تتراوح بين الستين إلى السبعين، فحرصت الشريعة على إشغال هذا الجانب المهمِّ في شخصيَّة المسلم؛ ليأخذ بجانب الأهمِّ فالمهمِّ حسبما يُوفَّق له من أعمال الخير والصلاح في الدنيا والآخرة.

ومَن حرَص على البكور وعلى العمل في هذه الأوقات وبكَّر وبادر إلى الصالحات؛ كان ذلك سببًا في حصول الخير له، ومن ذلك:

- أنَّه سبب في سعادة العبد في الدنيا والآخرة، قال العلامة ابن رجب الحنبليُّ رحمه الله: لما سمع القوم قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾[(١)]، وقوله: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[(٢)]؛ فهموا أن المراد من ذلك: أن يجتهد كلُّ واحدٍ منهم أن يكون هو السابق لغيره إلى هذه الكرامة، والمسارع إلى بلوغ هذه الدرجة العالية، فكان تنافسُهم في درجات الآخرة واستباقهم إليها، ثم جاء مِن بعدهم قومٌ فعكسوا الأمر، فصار تنافسُهم في الدنيا الدنيئة وحظوظها الفانية[(٣)].
- أنَّه سبب لاغتنام الأوقات وعدم تضييعها: قال صلى الله عليه وسلم- كما عند الإمام مسلم:" بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يُصبح الرجل مؤمنًا، ويُمسي كافرًا، ويُمسي مؤمنًا ويُصبح كافرًا، يبيع دينه بعرَض من الدنيا قليل"[(٤)]، وقال صلى الله عليه وسلم أيضًا- كما في صحيح البخاري- عن ابن عباس- رضي الله عنهما-: " نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ"[(٥)].

---

(١) المائدة: ٤٨.

(٢) الحديد: ٢١.

(٣) ينظر: لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٢٤٤). لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، الناشر: دار ابن حزم للطبتعة والنشر، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م.

(٤) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١١٠) برقم (١١٨) كتاب الإيمان باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن.

(٥) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ٨٨) برقم (٦٤١٢) كتاب الرقاق باب لا عيش إلا عيش الآخرة.



فالذي ينام نهاره قد ضيَّع غنيمتين عظيمتين: الأولى: واجب الله عليه بصلاة الفجر في جماعة، والغنيمة الثانية: بركة أول النهار، الوقت الذي تُقسَّم فيه الأرزاق، فيُحرَم ذلك الرزق الإلهيُّ في يومه لنومه.

فمَن ضيَّع حق الله الواجب عليه، فلا عجب أن يعيش في قلق وثبور، ونقصان وكدر؛ لما يجده من عقاب الله عليه، لإهماله ما وجب عليه، أرأيتم إنسانًا لا يقوم بوظيفته كما يجب، فيجد توبيخًا من صاحب العمل، وربما خصم شيئًا من أجرته، ألا يجد ألمًا في نفسه من التوبيخ، وحرمان الأجر؟!!

يقول ابن القيم رحمه الله في كتابه الطب النبوي: ونوم الصبحة يمنع الرزق، لأنَّ ذلك وقت تطلب فيه الخليقة أرزاقها، وهو وقت قسمة الأرزاق، فنومه حرمان إلَّا لعارض أو ضرورة، وهو مُضرٌّ جدًّا بالبدن لإرخائه البدن، وإفساده للعضلات التي ينبغي تحليلها بالرياضة، فيُحدِث تكسُّرًا وعيًّا وضعفًا. وإن كان قبل التبرُّز والحركة والرياضة وإشغال المعدة بشيء، فذلك الداء العضال المولِّد لأنواع من الأدواء[1].

والخلاصة: أنَّ في البكور بركة وزيادة ونماء لخيرَي الدنيا والآخرة، وأنَّه ينبغي لكل مسلم أن يحشد همَّته ويقوِّي إرادته للمسابقة لفعل الأعمال الصالحة في كل الأوقات، وخاصَّة في بداية النهار، وأوَّله الفجر للصلاة وقراءة القرآن بعدها وقراءة الأذكار، ثم التوجُّه لبقيَّة الأعمال الدنيويَّة والدينيَّة النافعة له في معاشه ومعاده.

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ٢٢٢).



٢٤ ربيع الآخر
العينُ حقٌّ

العين والحسد مسألة من المسائل المشهورة بين الناس، ثابتة بالكتاب والسُّنَّة والإجماع، بيَّنها الله سبحانه وتعالى، وانقسم الناس في قبولها إلى ثلاثة أقسام؛ القسم الأول: مُفْرِطون موسوسون في تعليق وربط كلِّ ما يحدث معهم بالعين والحسد، بل وقد يلجأون في العلاج إلى الكُهَّان والمبتدعة، بل قد يصلون إلى الشرك والردَّة. والقسم الثاني: مُنكرون لوجود العين والحسد، ولا يؤمنون بالعلاج حتَّى عن طريق الرقية الشرعيَّة، ويعتبرون كلَّ ذلك من الشعوذة، والقسم الثالث: هو وسطٌ بين الطرفين؛ يؤمن بوجود الحسد والعين وتأثيرهما على الإنسان، وفي نفس الوقت يتَّبع الطرق الشرعيَّة في علاجها بعيدًا عن البدع والتجارب ووصفات العطَّارين، ودجل المشعوذين، وهو المنهج الحقُّ منهج أهل السُّنَّة والجماعة.

العين من الأخلاق السيئة، والخصال القبيحة، والأمراض المقيتة التي تقود إلى النزاع والخصام والعداوة والبغضاء، وفيما يأتي تعريف هذا الخلق الذميم للابتعاد عنه واجتنابه:

العين: عرَّفها ابن القيم بأنها: "سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن نحو المحسود والمعين تصيبه تارة وتخطئه تارة، فإن صادفته مكشوفًا لا وقاية عليه؛ أثَّرت فيه ولا بدَّ، وإن صادفته حذرًا شاكي السلاح لا منفذ فيه للسهام لم تؤثِّر فيه"(١).

ولا يقتصر أثر العين الحاسدة على الإنسان، بل ربَّما يمتدُّ إلى الحيوان والجماد، وقد أمر النبي- صلى الله عليه وسلم- بالاسترقاء من العين، ودليل ذلك ما روت أم المؤمنين عائشة- رضي الله عنها-:" كان رسول الله- صلى اللَّه عليه وسلم- يأمرني أن أسترقي من العين". رواه مسلم(٢).

وقد سئل فضيلة الشيخ العلامة ابن باز: هل للعين- أعني: الحسد- أنواع، بمعنى: أنَّه فيه عين تضرُّ بالمِعان بشدَّة، وعين تضرُّ بالمعان بأضرار بسيطة؟

فأجاب: العين حقٌّ مثل ما قال صلى الله عليه وسلم:" العين حق، ولو كانَ شيءٌ سابَقَ القَدَرَ سَبَقَتْهُ العَيْنُ". رواه مسلم(٣)، قد تقع العين فتضرُّ بعض الناس، وليس باختيار الإنسان، قد يكون عنده عندما يرى شيئًا يعجبه، قد يصاب المعيون بشيء يضرُّه، فالإنسان يتعوَّذ بكلمات الله التامَّات

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/ ١٥٤).

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٧٢٥) برقم (٢١٩٥) كتاب السلام باب استحباب الرقية من العين والنظرة.

(٣) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٧١٩) برقم (٢١٨٨) كتاب السلام باب الطب والمرض والرقى.



من شرِّ ما خلق صباحًا ومساء ثلاث مرَّات، فهذا من أسباب الوقاية، ويقول:" باسم الله الذي لا يضرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم" ثلاث مرَّات صباحًا ومساء، هذا من أسباب الوقاية.

والعين حقٌّ قد تصدُر من الإنسان بغير اختياره، قد يرى ما يعجبه من صحَّة إنسان أو كثرة ماله، أو غير هذا؛ فيحصل له أن يعينه، نعم، يعني ينظره، نعم.

وسُئل الشيخ محمد الصالح العثيمين: هل العين تصيب الإنسان؟

فأجاب بقوله: رأينا في العين أنَّها حقٌّ ثابت شرعًا وحسًّا، قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ﴾[1]، قال ابن عباس- رضي الله عنهما- وغيره في تفسيرها: أي يعينوك بأبصارهم، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم:" العين حق، ولو كان شيء سابقَ القدر سبقت العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا". رواه مسلم[2]. [3].

وهناك أسباب عديدة، ورُقًى مباركة تمنع من الحسد منها:

١- الإكثار من قراءة المعوِّذتين، والتعوُّذ بالله من شرِّ الحاسد إذا حسد.

٢- ستر ما يُخشى عليه من العين من منظر باهر، أو شيء ملفت، أو تحصينه بالأوراد والأذكار، مع اليقين التام أنَّه لا يضرُّه أحدٌ إلَّا بإذن الله تعالى.

٣- الاحتراز من العائن، قال القاضي عياض: قال بعض العلماء: ينبغي إذا عُرِف واحدٌ بالإصابة بالعين أن يُجتنب، وأن يُحترز منه[4]، لذلك على الإنسان أن يحتاط قدر الإمكان، ويبذل الأسباب؛ فهاهو يعقوب-عليه السلام- حينما خاف على أبنائه من الحسد أمرهم أن لا يدخلوا من باب واحد، بل من أبواب مُتفرِّقة؛ لكي لا يلفتوا الأنظار إليهم، ولكي لا يعترضهم أهل الحسد والشرِّ؛ لأنهم كانوا في قمَّة الحُسن والجمال والهيبة.

---

(١) القلم: ٥١.

(٢) تقدم تخريجه قريبًا.

(٣) ينظر: فتاوى أركان الإسلام (ص: ١٣٢). فتاوى أركان الإسلام، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان، الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤هـ.

(٤) ينظر: شرح سنن أبي داود لابن رسلان (١٥/ ٦٠١). شرح سنن أبي داود، المؤلف: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حسين بن علي بن رسلان المقدسي الرملي الشافعي (المتوفى: ٨٤٤هـ)، تحقيق: عدد من الباحثين بدار الفلاح بإشراف خالد الرباط، الناشر: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الفيوم - جمهورية مصر العربية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.



وانظر إلى هذه المعاني البديعة التي ترسيها نصيحة يعقوب لأبنائه، وهو يحتاط ويبذل الأسباب؛ ويجب- مع بذلها- حُسن التوكُّل عليه تعالى لا على الأسباب ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾(١).

٤- تقوى الله تعالى وحفظه في أمره ونهيه، والتوكُّل عليه تعالى، والثقة بنصره.

٥- الدعاء له بالبركة، كما جاء في حديث سهل بن حنيف، كأن يقول:" بارك الله "(٢)، أو" اللهمَّ باركْ له فيما أعطيته "ونحو ذلك.

هذه هي الأسباب التي بأمر الله تعالى تمنع وقوع العين والإصابة بها، وتمنع الحسد بكل أشكاله.

وإنَّ هناك أمورًا هامة لدفع حسد الحاسد عمومًا، إضافة إلى ما سبق، ومن أهمها:

١- كثرة الصدقة والإحسان، فإن لها تأثيرًا عجيبًا في دفع البلاء، ودفع العين، ودفع شر الحسد، قال صلى الله عليه وسلم:" صنائع المعروف تقي مصارع السوء" أخرجه الطبراني(٣).

٢- وهو من أصعب الأسباب على النفس وأشقها عليها، ولا يُوفَّق له إلَّا من عظم حظُّه، وهو إطفاء نار الحاسد والباغي والحاقد بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذى وشرًا وبغيًا وحسدًا؛ ازددتَ إليه إحسانًا، وله نصيحة، وعليه شفقة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾(٤).

---

(١) يوسف: ٦٧.

(٢) لعل المراد حديث عبد الله بن عامر، قال: انطلق عامر بن ربيعة وسهل بن حنيف يريدان الغسل، قال: فانطلقا يلتمسان الخمر، قال: فوضع عامر جبة كانت عليه من صوف، فنظرت إليه، فأصبته بعيني، فنزل الماء يغتسل، قال: فسمعت له في الماء فرقعة فأتيته، فناديته ثلاثا فلم يجبني، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته قال: فجاء يمشي فخاض الماء كأني أنظر إلى بياض ساقيه، قال: فضرب صدره بيده ثم قال: " اللهم أذهب عنه حرها، وبردها، ووصبها " قال: فقام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إذا رأى أحدكم من أخيه، أو من نفسه، أو من ماله ما يعجبه، فليبركه فإن العين حق". مسند أحمد (٢٤/ ٤٦٥) برقم (١٥٧٠٠). والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٦/ ١٤٨).

(٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٢٦١) برقم (٨٠١٤). والحديث حسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢/ ٧٠٨).

(٤) فصلت: ٣٤، ٣٥.



جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله؛ إنَّ لي قرابة، أصلهم ويقطعونى، وأُحسن إليهم ويُسيئون إليَّ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ، فقال:" لئن كنتَ كما قلتَ فكأنَّما تسفهم الملَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمتَ على ذلك". أخرجه مسلم[١].

٣- وهذا هو الجامع لكل الأسباب والأساس لكل الرُّقى؛ وهو تحقيق التوحيد لله تعالى، واليقين الجازم بأنَّ هذه الأسباب جميعها بإرادة الله تعالى وقدرته، وأنَّ بيده مقاليد السموات والأرض، وأنَّه خالق كلِّ شيء وبارئه، وأنَّه لا ينفعه شيء ولا يضرُّه إلَّا بإذنه: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[٢].

والخلاصة: أن العين حق، ولكنها لا تضر إلَّا بإذن الله، فعلينا باليقين في الله وحُسْن التوكُّل عليه، يقول صلى الله عليه وسلم:" يا غلام؛ إنِّي أُعلِّمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألتَ فاسأل الله، وإذا استعنتَ فاستعن بالله؛ واعلمْ أنَّ الأمة لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلَّا بشيءٍ قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك بشيءٍ لم يضرُّوك إلَّا بشيءٍ قد كتبه الله عليك، رُفعتْ الأقلام، وجفَّت الصحف" أخرجه الترمذي[٣].

والحسد قلَّما ينجو منه أحد، فكلُّ ذي نعمة مغبون ومحسود.

إنْ يَحسُدوني فَإِنّي غَيرُ لائِمِهِمْ ... قَبلي مِنَ الناسِ أَهلُ الفَضلِ قَدحُسِدُوا
فَدامَ لي وَلَهُمْ ما بي وَمـا بِهِمُ ... وَمـاتَ أَكثَرُنا غَيظًا بِما يَجِدُ[٤]

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٨٢) برقم (٢٥٥٨) كتاب البر والصلة والآداب باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها.

(٢) يونس: ١٠٧.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ٦٦٧) برقم (٢٥١٦) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع باب بدون ترجمة. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٦/ ١٦).

(٤) شرح حماسة أبي تمام للفارسي (٢/ ٢٣٣). شرح كتاب الحماسة للفارسي (مطبوع مع: شروح حماسة أبي تمام دراسة موازنة في مناهجها وتطبيقها)، المؤلف: أبو القاسم زيد بن علي الفارسيّ (المتوفى: ٤٦٧هـ)، المحقق: د. محمد عثمان علي، الناشر: دار الأوزاعي – بيروت، الطبعة: الأولى.

٢٥ ربيع الآخر

فجاءته إحداهما تمشي على استحياء

حياء المرأة المسلمة من أهم ما يكسبها جمالًا يُزيّنها ويرفع قيمتها، فالمرأة الحييَّة لا تراها في مجتمع مزدحم بالرجال؛ تضاحك هذا أو تتمتم مع هذا، بل تراها غاضة طرفها، خافضة صوتها، لا تتكلم إلَّا فيما اضطرت إلى قوله بكل أدب وعفَّة وحياء. والحياء من أهم الصفات التي تتميَّز بها المرأة المسلمة عن غيرها من نساء الأرض وتجعلها كأنها درة فريدة ليس لها مثيل.

ولقد ضرب القرآن الكريم لنا في آياته مثلًا من أروع الأمثلة بابنتيْ شعيب، اللتين كانتا من أدق أوصافهما ما ذكره القرآن الكريم من حيائهما.

يقول الله تعالى ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

يقول العلامة السعدي رحمه الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ﴾ مواشيهم، وكانوا أهل ماشية كثيرة ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ أي: دون تلك الأمة ﴿ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِ﴾غنمهما عن حياض الناس، لعجزهما عن مزاحمة الرجال وبخلهم، وعدم مروءتهم عن السقي لهما، ﴿ قَالَ ﴾ لهما موسى ﴿مَا خَطۡبُكُمَا﴾ أي: ما شأنكما بهذه الحالة؟ ﴿قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾أي: قد جرت العادة أنَّه لا يحصل لنا سقي حتَّى يُصدر الرعاء مواشيهم، فإذا خلا لنا الجو سقينا، ﴿وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ﴾ أي: لا قوة له على السقي، فليس فينا قوة نقتدر بها، ولا لنا رجال يزاحمون الرعاء، فرقَّ لهما موسى- عليه السلام- ورحمهما ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ غير طالب منهما الأجرة، ولا له قصد غير وجه الله تعالى، فلمَّا سقى لهما، وكان ذلك وقت شدة حرٍّ، وسط النهار، بدليل قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ مستريحًا لذلك الظلال بعد التعب، ﴿ فَقَالَ﴾ في تلك الحالة، مسترزقًا ربَّه ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ﴾ أي: إنِّي مفتقرٌ للخير الذي تسوقه إليَّ وتيسّره

---

(١) القصص:٢٣. ٢٥.



لي. وهذا سؤال منه بحاله، والسؤال بالحال أبلغ من السؤال بلسان المقال، فلم يزل في هذه الحالة داعيًا ربه متملِّقًا. وأمَّا المرأتان فذهبتا إلى أبيهما وأخبرتاه بما جرى، فأرسل أبوهما إحداهما إلى موسى، فجاءته ﴿تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ وهذا يدلُّ على كرم عنصرها، وخُلُقها الحسن، فإنَّ الحياء من الأخلاق الفاضلة، وخصوصًا في النساء[١].

وقال الجاحظ في تهذيب الأخلاق: الحياء من قبيل الوقار وهو غضُّ الطَّرف والانقباض عن الكلام حشمة للمُستحيا منه، وهو عادة محمودة ما لم تكن عن عيٍّ ولا عجز[٢].

والحياء يتمثَّل في مراقبة الله عزَّ وجلَّ، فإن المرأة المسلمة التقيَّة تستشعر مراقبة الله عزَّ وجلَّ فتستحي من مخالفته، وتُطهِّر ظاهرها وباطنها ممَّا يُغضب الله عزَّ وجلَّ، فعن ابن مسعود- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" استحيوا من الله تعالى حقَّ الحياء، من استحيا من الله حقَّ الحياء فليحفظ الرأس وما وعى، وليحفظ البطن وما حوى، وليذكر الموت والبلا، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا، فمن فعل فقد استحيا من الله حق الحياء". رواه أحمد والترمذي[٣].

أما المرأة المسلمة فهي التي لا تغفل عن مراقبة الله عزَّ وجلَّ لها، واطلاعه عليها، فيحملها ذلك على اجتناب حرمات الله فلا تعصيه غير مبالية، بل تظل مراعية لحدود الله.

قال الحارث المحاسبي: المراقبة علم القلب بقُرْب الرب ، وكان الإمام أحمد يُنشد:

إذا ما خلوتَ الدهر يومًا فلا تقلْ   خلوتُ ولكن قلْ عليَّ رقيبُ
ولا تحسبنَّ اللهَ يغفلُ ساعةً   ولا أن ما تُخفي عليه يغيبُ[٤]

إنَّ ما نراه اليوم من سوء أدب وقلة حياء؛ إنَّما ينمُّ عن ضعف في الإيمان، فالنبيُّ صلى الله عليه وسلم يقول:" الحياء والإيمان قرناء، فإن ذهب أحدهما ذهب الآخر ". أخرجه الحاكم والبيهقي[٥]،

---

(١) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦١٤).

(٢) ينظر: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم (٥/ ١٧٩٧). نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم، المؤلف: عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي، الناشر: دار الوسيلة للنشر والتوزيع، جدة، الطبعة: الرابعة.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٦/ ١٨٧) برقم (٣٦٧١). والترمذي في جامعه (٤/ ٦٣٧) برقم (٢٤٥٨) أبواب صفة القيامة والرقائق والورع باب بدون ترجمة. والحديث حسنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٥/ ٤٥٨).

(٤) ذكرها البيهقي في شعب الإيمان (٩/ ٤١٧) أن الشافعي أنشدها.

(٥) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين للحاكم (١/ ٧٣) برقم (٥٨) بلفظ: «الحياء والإيمان قرنا جميعا، فإذا رفع أحدهما رفع الآخر». والبيهقي في شعب الإيمان (١٠/ ١٦٧) برقم (٧٣٣١). والحديث صححه الألباني كما في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٣٣١).



كما أن الحياء شعبة من شعب الإيمان كما قال صلى الله عليه وسلم: " الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة؛ فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان". رواه مسلم[١]، ولقد مر صلى الله عليه وسلم على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :" دعْه؛ فإنَّ الحياء من الإيمان ". رواه البخاري[٢].

ولهذا لما ضعف الإيمان في نفوس بعض المسلمات؛ رأينا قلَّة الحياء تظهر على كلماتهم وسلوكياتهم وأخلاقهم، فانظر إلى حالهم في الطرقات والمواصلات، وفي المدارس والمعاهد والجامعات، وفي الأندية والمنتزهات، وداخل المنازل وعلى الشاشات، وفي الصحف والمجلات والإعلانات، ستجد أننا أمام ظاهرة تستدعي الوقوف معها ودراسة أسبابها.

فتلك المرأة التي تصاحب أجنبيًّا عنها وتجلس معه في الجامعة، أو تسير معه في الطرقات، أو تسافر معه هنا وهناك، أو تلك المرأة التي تسمع منها تلك الضحكات الرنانة والكلمات البذيئة، أو تلك المرأة التي تجلس مع قريناتها يتسامرن ويتحدثن في أشياء تخدش حياء الرجل فضلًا عن حياء المرأة، أو تلك المرأة التي تختلط بالرجال اختلاطًا مُحرَّمًا بل وتسعى إلى ذلك الاختلاط ولا تحاول تجنُّبه، أو تلك المرأة التي تتزيَّن وتلبس ثيابًا غير شرعيَّة فيها من السفور والتبرُّج ما فيها، أو تلك المرأة التي تفرح بمعاكسة الآخرين لها لتشعر بأنوثتها، أو التي تُظهِر خصيلات من شعرها لتبرز جمالها وجمال شعرها ونعومته ونضارته، أو تلك المرأة التي تشاهد الصور العارية والأفلام الخليعة، وتُقلِّب صفحات المجلات الماجنة والجرائد ومواقع الإنترنت بحثًا عن أخبار التافهين والتافهات، ورغبة في التحدُّث إلى أصحاب القلوب المريضة والنفوس الأمَّارة بالسوء، أو تلك المرأة التي تخرج إلى الشواطيء وتنزع عنها الكثير من لباسها بدعوى التنزه والترفيه، أو تلك المرأة التي تلتقط خيوط الكلام لتتحدَّث مع الرجال وتضحك معهم .... الخ.

والنبي صلى الله عليه وسلم أخبرنا عن حال هؤلاء وعن سبب تلك الأفعال فيقول صلى الله عليه وسلم:" إنَّ ممَّا أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستحي فاصنع ما شئتَ ".رواه البخاري[٣].

---

(١) رواه بهذا اللفظ مسلم في صحيحه (١/ ٦٣) برقم (٣٥) كتاب الإيمان باب شعب الإيمان. ورواه البخاري مختصرًا في صحيحه (١/ ١١) برقم (٩) كتاب الإيمان باب أمور الإيمان.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٤) برقم (٢٤) كتاب الإيمان باب الحياء من الإيمان.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٧) برقم (٣٤٨٣) كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار.



ففقْدُ الحياء يستدعي أن يصنع المرء ما يشاء، كما أن الفعل الذي لا يستحي المرء من فعله؛ يصنعه ويُقدم عليه، وكلاهما معنيان ذكرهما أهل العلم لهذا الحديث، وعليه فإنَّ المرأة التي ضاع حياؤها وصار مفقودًا وغائبًا عن حياتها؛ ستجدها تفعل ما تشاء، وقديمًا قال الشاعر:

إذا لم تخـشَ عاقبـةَ الليـالي ... ولم تستحِ فاصنعْ ما تشاءُ
فلا واللهِ ما في العيشِ خيرٌ ... ولا الدنيا إذا ذهبَ الحياءُ
يعيشُ المـرءُ ما استحيا بخيرٍ ... ويبقى العودُ ما بقي اللحاءُ[1]

والخلاصة: كما قال الإمام ابن القيم- رحمه الله-: وَعَلَى حَسَبِ حَيَاةِ الْقَلْبِ، يَكُونُ فِيهِ قُوَّةُ خُلُقِ الْحَيَاءِ، وَقِلَّةُ الْحَيَاءِ مِنْ مَوْتِ الْقَلْبِ وَالرُّوحِ، فَكُلَّمَا كَانَ الْقَلْبُ أَحْيَى كَانَ الْحَيَاءُ أَتَمَّ[2]. والمرأة المسلمة تتلخَّص صفاتها في الحياء سواء من الله أو من الناس. فحياؤها رأسمالها؛ فيه عزُّها، وبه تحفظ كرامتها، وشرف أهلها، حياء في كل شيء؛ في الملبس، في الحركة والكلام، في المعاملة والسلوك، وحياؤها يجعلها أكثر التزامًا بدينها وتعاليم دينها الإسلامي.

(١) الإشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا (ص: ٣٠٦). الإشراف في منازل الأشراف، المؤلف: أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، المحقق: د نجم عبد الرحمن خلف، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ ١٩٩٠م.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين (٢/ ٢٤٨).



٢٦ ربيع الآخر

إنَّ الشرك لظلم عظيم

أشدُّ المعاصي ضررًا وأعظمها خطرًا هو الشرك بالله تعالى، إنَّه أقبح الذنوب وأشر العيوب، وما عُصِيَ الله بذنب أسوأ منه، إنَّه ظلم كبير، وخلل عسير، وشرٌّ مستطير! أُرسِلت الرسل للتحذير منه، وأُنزِلت الكتب للزجر عنه، وتوالت نداءات القرآن للتوبة منه فلا يصحُّ الدين إلا بالبُعد عنه، ولا يُقبَل عملٌ إلَّا بالخلاص منه، فإنه مُغضِب للملك الجبار، ومُوجِب للخلود في النار، وقائدٌ لبئس القرار، فما فعل إنسان ذنبًا أشدَّ منه، وما اقترف آدميٌّ خطيئة أسوأ منه، وما كُتِب في ديوان مُكلَّفٍ سيئةٌ أخزى منه.

فالشرك شؤم يفتك لظاه بالفرد والمجتمع؛ فهو أعظم ذنب عُصِيَ الله به، يقول الله تعالى حكاية عن وصية لقمان الحكيم الصالح لولده: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(١).

يقول العلامة السعدي رحمه الله: قال له قولًا به يعظه بالأمر والنهي، المقرون بالترغيب والترهيب، فأمره بالإخلاص، ونهاه عن الشرك، وبيَّن له السبب في ذلك فقال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ووجه كونه عظيمًا، أنَّه لا أفظع وأبشع ممَّن سوَّى المخلوقَ من تراب؛ بمالك الرقاب، وسوَّى الذي لا يملك من الأمر شيئًا؛ بمَن له الأمر كلُّه، وسوَّى الناقص الفقير مِن جميع الوجوه؛ بالرَّبِّ الكامل الغنيّ من جميع الوجوه، وسوَّى مَن لم يُنعمْ بمثقال ذرة من النعم؛ بالذي ما بالخلق من نعمة في دينهم ودنياهم وأخراهم، وقلوبهم وأبدانهم إلَّا منه، ولا يصرف السوءَ إلَّا هو، فهل أعظم من هذا الظلم شيء؟ وهل هناك أعظم ظلمًا ممَّن خلقه الله لعبادته وتوحيده، فذهب بنفسه الشريفة، فجعلها في أخس المراتب، جعلها عابدة لمن لا يسوى شيئًا، فظلم نفسه ظلمًا كبيرًا(٢).

عن عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه- قال: سألتُ النبيَّ- صلى الله عليه وسلم-:" أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك، قلت: إنَّ ذلك لعظيمٌ، قلت: ثمَّ أيُّ؟ قال: وأن تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك، قلت: ثمَّ أيُّ؟ قال: أن تُزاني بحليلة جارك ". متفق عليه(٣).

---

(١) لقمان: ١٣.

(٢) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٦٤٨).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٦/ ١٨) برقم (٤٤٧٧) كتاب تفسير القرآن باب قوله تعالى: {فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون} [البقرة: ٢٢]. ومسلم في صحيحه (١/ ٩٠) برقم (٨٦) كتاب الإيمان باب كون الشرك أقبح الذنوب، وبيان أعظمها بعده.



فالشرك ذنب لا يُغفر﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ ﴾(١) .

وهو مانع من الجنة ومُوجِب لخلود النار ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ ﴾(٢).

والشرك أعظم المظالم ﴿ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ﴾(٣).

والشرك ضلال بعيد ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾(٤).

والشرك افتراء مبين ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾(٥).

والشرك مُحبِطٌ للعمل ومُوجِب لخسار صاحبه كائنًا مَن كان ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾(٦).

والشرك سببٌ لتخلِّي المولى عن العبد، وإسلامه لعدوٍ لا يرحمه ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴾(٧).

والشرك نجاسة تُدنِّس مَن تلطَّخ بوضرها ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ﴾(٨).

والشرك سبب لاختلال التصوُّر واستجلاب الخرافة وارتعاب القلب، قال الله تعالى ﴿ سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾(٩).

وانتشار الشرك مُؤذِن بالخراب، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا تقوم الساعة حتَّى لا يُقال في الأرض: الله، الله ". رواه مسلم(١٠).

وإنَّما كان الشرك أعظم الذنوب عند الله لأنَّه أقبح القبح وأظلم الظلم، إذ مضمونه تنقيص ربِّ العالمين، وصرف خالص حقِّه لغيره، وعدل غيره به، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾(١١) .

---

(١) النساء: ٤٨، ١١٦.

(٢) المائدة: ٧٢.

(٣) لقمان: ١٣.

(٤) النساء: ١١٦.

(٥) النساء: ٤٨.

(٦) الزمر: ٦٥.

(٧) الحج: ٣١.

(٨) التوبة: ٢٨.

(٩) آل عمران: ١٥١.

(١٠) رواه مسلم في صحيحه (١/ ١٣١) برقم (١٤٨) كتاب الإيمان باب ذهاب الإيمان آخر الزمان.

(١١) الأنعام: ١.



والتحذير من الشرك هو أساس دعوة الأنبياء- عليهم السلام-، وذلك أنَّه لا يصحُّ دينٌ إلَّا بالتوحيد، ولا يسلم التوحيد إلَّا بالتبرِّي من الشرك، قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾(٢).

فالتحذير من الشرك؛ بعث الله به رسله وأنزل لأجله كتبه، فهل نحن واعون لهذا الأمر الخطير؟ أم أنَّنا في غفلة وجهل؟

والبراءة من المشركين من أعظم أسباب التنائي عن الشرك؛ لبراءة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم منهم كما أعلم بقوله: ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾(٣)، وأصل البراءة البغض، كما أبداه الخليل وأتباعه المؤمنون لقومهم المشركين إذ قالوا: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾(٤).

ويزيد في خطر الشرك دقَّة المسارب المُفضية إليه، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " يا أيُّها الناس؛ اتَّقوا هذا الشرك، فإنَّه أخفى من دبيب النمل". رواه أحمد(٥).

وممَّا يزيد خطره كثرة الواقعين فيه، كما قال الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾(٦)، وذلك ما جلب خوف الراسخين؛ فهذا خليل الرحمن يسأل ربَّه النجاة له ولبنيه من عبادة الأصنام ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾(٧).

---

(١) النحل: ٣٦.

(٢) المائدة: ٧٢.

(٣) التوبة: ٣.

(٤) الممتحنة: ٤.

(٥) رواه أحمد في مسنده (٣٢/ ٣٨٣) برقم (١٩٦٠٦).

(٦) إبراهيم: ٣٦.

(٧) إبراهيم: ٣٥.

قال إبراهيم التيميُّ: ومَن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟[١] وقال: ما عرضتُ قولي على عملي إلَّا خشيتُ أن أكون مُكذِّبًا، وقال ابن أبي مليكة: أدركتُ ثلاثين من أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم كلُّهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحدٌ يقول: إنَّه على إيمان جبريل وميكائيل[٢].

وقال الحسن عن النفاق: ما خافه إلَّا مؤمنٌ، ولا أمِنَه إلَّا منافقٌ[٣].

هذا، وقد بوَّب الإمام البخاري في صحيحه: باب خوف المؤمن من أن يُحبَط عملُه وهو لا يشعر[٤].

وهذا يعقوب- عليه السلام- يخاف على بنيه من بعده أن يحيدوا عن التوحيد، وأن يواقعوا الشرك بالله العظيم، فيجمعهم كما حكى الله تعالى عنه: ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾[٥]، وكيف لا يخاف يعقوب وقد خاف أبوه إبراهيم من قبل؟!

وعن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يا رسول الله؛ وما هنَّ؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحقِّ، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولِّي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات". رواه البخاري ومسلم[٦].

وعن جابر- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مَن لقِيَ الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومَن لقيه يُشرك به شيئًا دخل النار". رواه مسلم[٧].

والخلاصة: أن الغاية التي خُلِق من أجلها هذا المخلوق الضعيف أن يكون شكورًا، يُفرِد الله تعالى بالعبادة ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾[٨]، ومن أظلم الظلم وأقبح القبائح أن يُشرك العبد مع الله غيره بعد أن خلقه الله واصطفاه، وسخَّر له المخلوقات، وأرسل إليه الرسل، وأنزل

---

(١) أخرجه الطبري في تفسير الطبري (١٣/ ٦٨٨).

(٢) رواهما البخاري في صحيحه معلقًا (١/ ١٩).

(٣) رواه البخاري في صحيحه بصيغة التمريض (١/ ١٩).

(٤) صحيح البخاري (١/ ١٨).

(٥) البقرة: ١٣٣.

(٦) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٠) برقم (٢٧٦٦) كتاب الوصايا باب قول الله تعالى: {إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما، إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا} [النساء: ١٠]. ومسلم في صحيحه (١/ ٩٢) برقم (٨٩) كتاب الإيمان باب بيان الكبائر وأكبرها.

(٧) رواه مسلم في صحيحه (١/ ٩٤) برقم (٩٣) كتاب الإيمان باب من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة.

(٨) الذاريات: ٥٦.

عليه الكتب، فكان أعظم الذنوب الشرك بالله تعالى، بأن يُساوَى غيرُ الله بالله فيما هو من خصائص الله تعالى، فكيف يُساوَى الخالق الرازق الملك المدبر؛ بالمخلوق الذي لا يملك ضرًّا ولا نفعًا، ولا يملك موتًا ولا حياة ولا نشورًا؟!.



٢٧ ربيع الآخر

الشرْك الخفيُّ

الرياء وصف ممقوتٌ عند الله، وممقوتٌ عند أصحاب الفطرة السليمة، والقلوب النظيفة الطاهرة، وذوي الألباب من الخلق، فقد سأل رجلٌ سعيد بن المسيّب- رحمه الله تعالى- فقال: إنَّ أحدنا يصطنع المعروف يُحبُّ أن يُحمد ويُؤجر، فقال له: أتُحبُّ أن تُمقَت؟ قال: لا، قال: فإذا عملتَ لله عملًا فأخلصْه[١].

وكيف لا يكون الرياء خُلُقًا ذميمًا ممقوتًا؛ وصاحبه قد ابتغى بعمله غير الله تعالى؟ وسعى لإرضاء الخَلْق بعمل لا ينبغي أن يكون إلَّا للخالق سبحانه.

وكلُّ ما يوصل إلى الشرك فقد حرمه الله تعالى، فقد نهى الشرع عمَّا هو وسيلة وذريعة إلى الشرك الأكبر، وجاء في الكتاب أو السنَّة تسميته شِرْكًا.

فالرياء ضد الإخلاص، والإخلاص: أن تقصد بعملك وجه الله تعالى، أمَّا الرياء فمشتقٌّ من الرؤية، وهو أن يعمل العمل ليراه الناس، والسمعة مشتقَّة من السمع وهو: أن يعمل العمل ليسمعه الناس.

والرياء: هو تحسين العبادة في الظاهر أو إظهارها، أو الإخبار عنها بقصد رؤية الناس، وكسب الثناء منهم.

قال صلى الله عليه وسلم: " إنَّ أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله لهم يوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً". رواه أحمد[٢].

والرياء كبيرة من الكبائر العظام، وذنب من الذنوب الجسام؛ توعَّد الله عليه بالوعيد الشديد، فقال سبحانه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمۡ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾[٣]، والويل: وادٍ في جهنم بعيدٌ قعرُه، شديدٌ حرُّه، توعَّد الله به من يُرائي الناس بعمله؛ لأنَّ عمل الطاعات والقُرُبات لا ينبغي أن يكون لغير الله سبحانه.

---

(١) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين (٣/ ٢٩٦).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣٩/ ٣٩) برقم (٢٣٦٣٠). والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٢/ ٦٣٤).

(٣) الماعون: ٤- ٧.



فالمراءون ينتظرون من الناس أن يشكروهم، وينتظرون من الناس أن يمدحوهم، أمَّا أهل الإخلاص فلا ينتظرون من أحدٍ شكرًا ولا مدحًا، بذلك وصفهم الله تعالى فقال سبحانه:﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾[١]، ومدْحُ الله عزَّ وجلَّ للمُخلصين في أعمالهم يقتضي ذمَّه للمُرائين، الذين لا يعملون العمل إلَّا وهم يريدون الثناء والشكر من الناس.

وفي الصحيحين عن جندب- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من سمَّع سمَّع الله به، ومن يُرائي يُرائي الله به"[٢].

وممَّا يدخل في الشرك الأصغر ما يلي:

الاعتقاد في شيء أنَّه سببٌ لجلب النفع أو دفع الضرِّ، ولم يجعله الله سببًا لذلك؛ قال صلى الله عليه وسلم: " إنَّ الرُّقى والتمائم والتولة شرْكٌ " رواه أبو داود[٣].

والمقصود بالرقى التي في الحديث : الرقى التي لا يُفهَم معناها، أو الرقى المشتملة على الشرك بالله. والتمائم : هي كلُّ ما يُعلّق على الإنسان أو الحيوان أو الممتلكات لدفع العين وغيرها. والمراد بالتولة : نوع من السحر يزعمون أنَّه يُحبِّب الزوجة إلى زوجها، والزوج إلى زوجته.

الشرْك في الألفاظ : كالحلف بغير الله، وقول القائل: ما شاء الله وشئتَ، ولولا الله وفلان، ونحوهما، قال صلى الله عليه وسلم: " من حلف بغير اللّه فقد كفر أو أشرك". رواه الترمذي[٤]، وقال صلى الله عليه وسلم: " لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلانٌ، ولكن قولوا: ما شاء الله ثمَّ ما شاء فلانٌ". رواه أبو داود والنسائي[٥].

---

(١) الإنسان: ٨، ٩.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٨/ ١٠٤) برقم (٦٤٩٩) كتاب الرقاق باب الرياء والسمعة. ومسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٨٩) برقم (٢٩٨٦) كتاب الزهد والرقائق باب من أشرك في عمله غير الله.

(٣) رواه أحمد في مسنده (٦/ ١١٠) برقم (٣٦١٥). وأبو داود في سننه (٤/ ٩) برقم (٣٨٨٣) كتاب الطب باب في تعليق التمائم. وابن ماجه في سننه (٢/ ١١٦٦) برقم (٣٥٣٠) كتاب الطب باب تعليق التمائم. والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٦٤٨).

(٤) رواه الترمذي في جامعه (٤/ ١١٠) برقم (١٥٣٥) كتاب الطب باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله. والحديث صححه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن الترمذي (٤/ ٣٥).

(٥) رواه أحمد في مسنده (٣٨/ ٣٧٠) برقم (٢٣٣٤٧). وأبو داود في سننه (٤/ ٢٩٥) برقم (٤٩٨٠) كتاب الأدب باب لا يقال خبثت نفسي. والنسائي في السنن الكبرى (٩/ ٣٦١) برقم (١٠٧٥٥) كتاب عمل اليوم والليلة ذكر الاختلاف على عبد الله بن يسار فيه. والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٢٦٣).



والرياء قسمان: رياء المنافق ورياء المسلم.

فرياء المنافق هو رياء في أصل من أصول الدين، يعني أنَّه راءى بإظهار الإسلام وإبطان الكفر، مثل ردِّ الجهاد والحدود ونحوها، قال تعالى: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾(١).

ورياء المسلم : وهو مثل أن يُحسن صلاته من أجل نظر الناس أو بعض الناس له أو أن يُحسن تلاوته لأجل التسميع ليُمدح لا لأجل التأثير، أو يقوم الليل لأجل أن يقول الناس عنه إنَّه يقوم الليل أو ليقال مستقيم، ونحوها، والعياذ بالله.

فهذا كلُّه شرك أصغر أي رياء المسلم؛ والشرك الأصغر قد يكون مُحبِطًا لأصل العمل الذي تَعبَّد به، وقد يكون مُحبِطًا للزيادة التي زادها، فيكون مُحبِطًا لأصل العمل الذي تعبَّد به إذا كان ابتدأ النية بالرياء، أي من بدايتها كالذي يفعل العبادة كالصلاة وطلب العلم لأجل أن يُرى أنَّه يفعل ويُمدَح وينافس، فهذه تُحبط العمل وليس له فيها ثواب، ولكن إذا عرض له الرياء أثناء العبادة فيكون ما زاده لأجل الرؤية باطلًا قال صلى الله عليه وسلم: قال الله تعالى في الحديث القدسيِّ: " أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركتُه وشرْكَه". رواه مسلم(٢).

والرياء شرْك خفيٌّ، فعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: " خرج علينا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ونحن نتذاكر الدجال، فقال: ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من الدجال؟ قلنا: بلى، فقال: الشرك الخفيُّ، أن يقوم الرجل يُصلِّي فيُزيِّن صلاته لما يرى من نظر رجل". رواه ابن ماجه(٣).

ثوبُ الرِّياءِ يكشفُ عمَّا تحتَه　　　وإذا التحفتَ به فإنَّك عاري(٤)

وعن شداد بن أوس- رضي الله عنه- قال: "كنا نَعُدُّ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الرياء الشرك الأصغر". أخرجه الحاكم(١).

---

(١) النساء: ١٤٢.

(٢) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٨٩) برقم (٢٩٨٥) كتاب الزهد والرقائق باب من أشرك في عمله غير الله.

(٣) رواه أحمد في مسنده (١٧/ ٣٥٤) برقم (١١٢٥٢). وابن ماجه في سننه (٢/ ١٤٠٦) برقم (٣٥٣٠) كتاب الطب باب الرياء والسمعة. والحديث حسنه الألباني كما في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه (٩/ ٢٠٤).

(٤) ينظر: الحماسة المغربية (٢/ ١٢٦٣).



وللرياء أسباب كثيرة، منها:

الجهل: نعم، إنَّه الجهل بحقيقة الرياء ومآلاته، والجهل بقيمة الإخلاص وفوائده.

الطمع فيما في أيدي الناس: فما من شيء أفسد لدين المرء من الطمع في شهوات الدنيا، من مال أو منصب أو جاه.

لذَّة الحمد والثناء: محبَّة المُرائي لمدح الناس له، ورغبته في ثناء الناس عليه؛ سببٌ في وقوعه في الرياء، أمَّا المُخلص فلا يعمل إلَّا لله تعالى، ولا يلتفت إلى مدح الناس أو ذمِّهم له؛ إذ لا كمال بمدحهم ولا نقص بذمِّهم.

قال عليُّ بن أبي طالب- رضي الله عنه-: للمُرائي ثلاث علامات؛ يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان في الناس، ويزيد في العمل إذا أُثنِيَ عليه، وينقص إذا ذُمَّ(٢).

والخلاصة: أنَّ الرياء مُحبِط للأعمال الصالحة؛ ولو لم يكن في الرياء إلا إحباط عبادة واحدة؛ لكفى في شؤمه وضرره وقُبحه، وصدق الله إذ يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾(٣).

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٤/ ٣٦٥) برقن (٧٩٣٧) وقال عقبه: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه".

(٢) ينظر: الكبائر للذهبي (ص: ١٤٥). الكبائر، المؤلف: تنسب لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، الناشر: دار الندوة الجديدة – بيروت.

(٣) البقرة: ٢٦٤.



٢٨ ربيع الآخر

إنَّ لنفسك عليك حقًّا

ديننا الإسلاميُّ دين سماحة ويسر، ودين توازن واتِّزان؛ كما قال تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾[(١)]، فلا بدَّ وحتما من التوازن في الحياة، ولا بدَّ من ضرورة التوفيق بين الحقوق والواجبات، وأن يكون المسلم متَّزنًا في تعامله، لا يهتمُّ بأمرٍ فيكون اهتمامه به على حساب غيره، ولا يُقدِّم المهمَّ على الأهمِّ، والفاضل على المفضول.

عن أبي جحيفة- رضي الله عنه- قال: " آخى النبيُّ صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أمَّ الدرداء متبذِّلةً، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجةٌ في الدنيا ، فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعامًا، فقال: كُلْ، قال: فإنِّي صائمٌ، قال: ما أنا بآكل حتَّى تأكل، قال: فأكل، فلمَّا كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثمَّ ذهب يقوم، فقال: نم، فلمَّا كان من آخر الليل، قال سلمان: قم الآن، فصلَّيا ، فقال له سلمان: إنَّ لربِّك عليك حقًّا، ولنفسك عليك حقًّا، ولأهلك عليك حقًّا، فأعطِ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك له، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: " صدق سلمان". رواه البخاري[(٢)].

لم يأمر الله سبحانه وتعالى هذه الأمَّة بالانقطاع للعبادة؛ فلا رهبانيَّة في الإسلام كالتي ابتدعها النصارى في دينهم.

وفي هذا الحديث يروي أبو جحيفة- رضي الله عنه- أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم آخى بين سلمان الفارسيِّ وأبي الدرداء- رضي الله عنهما- مؤاخاة مواساة، وليست كالتي في أوَّل الهجرة التي كانت عقدت بين المهاجرين والأنصار ليتوارثوا بها؛ فقد نسخت، فزار سلمان الفارسيُّ أبا الدرداء- رضي الله عنهما- ذات يوم، فوجد أمَّ الدرداء متبذِّلةً، يعني تلبس ثياب الخدمة وعمل البيت وتترك التزيُّن، فسألها عن سبب هذه الحالة، فقالت له: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجةٌ في الدنيا؛ استحياءً من أن تُصرِّح بعدم حاجته إلى مباشرتها، وكانت هذه الزيارة وهذا الحوار قبل أن يُفرَض الحجاب على المسلمات، ثمَّ دخل أبو الدرداء فصنع لسلمان طعامًا يأكله، فقال سلمان لأبي الدرداء: كُلْ معي،

---

(١) القصص: ٧٧.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ٣٨) برقم (١٩٦٨) كتاب الصوم باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، ولم ير عليه قضاء إذا كان أوفق له.



فردَّ عليه أبو الدرداء أنَّه صائمٌ، فقال له سلمان: ما أنا بآكل من طعامك شيئًا حتَّى تأكل، وغرضه بذلك صرْف أبي الدرداء عمَّا يصنعه من الجهد في العبادة وغير ذلك ممَّا تضرَّرت منه زوجته أمُّ الدرداء، فأكل معه أبو الدرداء نزولًا على رغبته، ثمَّ بات سلمان عند أبي الدرداء، فلمَّا انقضى جزءٌ من الليل قام أبو الدرداء ليصلِّي، فأمره سلمان أن ينام، فنام أبو الدرداء، ثمَّ ذهب يقوم في وقت آخر، فقال له سلمان: نم، فلمَّا كان من آخر الليل، قال له سلمان: قم الآن، وقام معه سلمان فصلَّيا، ثمَّ نصحه سلمان وبيَّن له أنَّ لله عليه حقًّا بالعبادة، ولنفسه وجسده عليه حقًّا بالراحة ونحوها، وأنَّ لأهله من الزوجة والأولاد عليه حقًّا، كحسن المعاشرة والتربية، وتعهُّدهم بما يُصلح حال دينهم ودنياهم، وأرشده أن يُعطي كلَّ صاحب حقٍّ حقَّه، ثمَّ أتى أبو الدرداء إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فذكر له ما قال سلمان- رضي الله عنه-، فقال صلى الله عليه وسلم:" صدق سلمان " فيما قاله وما ذهب إليه.

إنَّ القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان، فبعد تعب وجهد وعناء؛ تميل النفوس إلى التجديد والتنويع، وترنو إلى الترويح واللهو المباح؛ دفعًا للكآبة، ورفعًا للسآمة؛ ليعود الطالب بعدها إلى مقاعد الدراسة بهمَّة وقَّادة، ويرجع الموظَّف إلى عمله بعزيمة وثَّابة، ذلك أنَّ القلوب إذا سئمتْ عميتْ.

لأنَّ السآمة والملل يفضيان إلى النفور والضجر، يقول عليُّ بن أبي طالب- رضي الله عنه-: " إنَّ القلوب تملُّ كما تملُّ الأبدان، فابتغوا لها طرائف الحكم"(١). ويقول أيضًا: "روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة، فإنَّ القلب إذا أكره عمي"(٢). ويقول أبو الدرداء- رضي الله عنه-: " إنِّي لأستجمُّ قلبي باللهو المباح ليكون أقوى لي على الحقِّ"(٣)، وقال عمر بن عبد العزيز- رحمه الله-: " تحدَّثوا بكتاب الله وتجالسوا عليه، وإذا مللتم فحديثٌ من أحاديث الرجال" (٤).

---

(١) ينظر: التمثيل والمحاضرة (ص: ٣٠). التمثيل والمحاضرة، المؤلف: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، المحقق: عبد الفتاح محمد الحلو، الناشر: الدار العربية للكتاب، الطبعة: الثانية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٢) ينظر: موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق (٢/ ٣٣٨). موسوعة الأخلاق والزهد والرقائق (قصص تربوية من حياة الأنبياء والصحابة والتابعين والصالحين)، المؤلف: ياسر عبد الرحمن، الناشر: مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.

(٣) ذكره القاضي عياض في كتابه بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد (ص ١١٩). بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد، المؤلف: أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي (ت: ٥٤٤ هـ(، المحقق: أبو داود أيمن بن حامد بن نصير الدسوقي، الطبعة: الأولى، ١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م، الناشر: دار الذخائر.

(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز (ص: ١١٨).



وهذا إمامهم وقدوتهم مُحمَّد صلى الله عليه وسلم يقول: " ياحنظلة؛ ساعةٌ وساعة". رواه مسلم(١)، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾(٢).

يقول الشيخ السعدي في تفسيره: يقول تعالى مُنكِرًا على من تعنَّت، وحرَّم ما أحلَّ الله من الطيبات ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ من أنواع اللباس على اختلاف أصنافه، والطيبات من الرزق، من مأكل ومشرب بجميع أنواعه، أي: مَن هذا الذي يُقدِم على تحريم ما أنعم الله به على العباد؟ ومَن ذا الذي يُضيِّق عليهم ما وسَّعه الله؟ وهذا التوسيع من الله لعباده بالطيبات؛ جعله لهم ليستعينوا به على عبادته، فلم يُبحه إلَّا لعباده المؤمنين، ولهذا قال:﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: لا تبعة عليهم فيها(٣).

والخوارج عندما اعتزلوا عليًّا- رضي الله عنه- أرسل إليهم ابن عبَّاس- رضي الله عنهما- لكي يناقشهم، فلما رأوه كان ممَّا قالوه: إيه يا ابن عبَّاس! ما جاء بك؟ وما هذه الحُلَّة؟ قال: ما تعيبون عليَّ! لقد رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس أحسن ما يكون من هذه الحُلل(٤)، ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾(٥).

فالإسلام دين السماحة واليسر، وهو يُساير فطرة الإنسان وحاجاته، فحين شاهد النبيُّ- صلى الله عليه وسلم الحبشة يلعبون، قال: " لتعلم يهود أنَّ في ديننا فسحةً، إنِّي أُرسِلت بحنيفيَّة سمحة". رواه أحمد(٦).

فلا نجعل من العبادة التي هي سبب خَلْقنا شقاءً لنا؛ كما قال تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم:﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾(٧)، قال الإمام الشنقيطي- رحمه الله- في أضواء البيان

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٠٦) برقم (٢٧٥٠) كتاب التوبة باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا

(٢) الأعراف: ٣٢.

(٣) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن (ص: ٢٨٧).

(٤) رواه أبو داود في سننه (٤/ ٤٥) برقم (٤٠٣٧) كتاب اللباس باب لباس الغليظ. والحديث حسن إسناده الألباني كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٩/ ٣٧).

(٥) الأعراف: ٣٢.

(٦) رواه أحمد في مسنده (٤١/ ٣٤٩) برقم (٢٤٨٥٦). والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٤/ ٤٤٣).

(٧) طه: ٢.



عند تفسيره لهذه الآية: أي لتنهك نفسك في العبادة وتذيقها المشقة الفادحة، وما بعثناك إلَّا بالحنيفيَّة السمحة(١).

وكان الصحابة يُرَوِّحون عن أنفسهم بالمرح والمزاح والتسلية، ولا يُقصِّرون في شيء من حقِّ الله تعالى، وإذا جدَّ الجدُّ كانوا هم الرجال، كما ثبت من فعلهم أنَّهم كانوا يتبارحون – أي يترامون – بالبطيخ فإذا جدَّ الجدُّ كانوا هم الرجال(٢)، وكما قال الأوزاعيُّ عن بلال بن سعد- يرحمهما الله-: أدركتُ أقوامًا يشتدُّون بين الأغراض؛ يضحك بعضهم إلى بعض، فإذا كان الليل كانوا رهبانًا "(٣).
وهكذا كانوا- رضي الله عنهم- كما قيل: " فرسانًا بالنهار رهبانًا بالليل "(٤)، وقال عمر بن الخطَّاب- رضي الله عنه-: "كان القوم يضحكون؛ والإيمان في قلوبهم أرسى من الجبال"(٥).

والخلاصة: أنَّ المسلم ينبغي أن يوازن بين أموره كلِّها، فلا يطغى جانب على جانب، ولكن يُعطي لكلِّ شيءٍ حقَّه ومستحقَّه، ويضع الأمور في نصابها الصحيح، فإذا قلنا إن النفس تتكوَّن من روح (قلب) وعقل وجسد، كان على الإنسان أن يوازن بين مطالب كلِّ واحد منها، ويسعى في إشباع كلِّ جانب بما يحتاجه دون إفراط أو تفريط.

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤/ ٤). أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، المؤلف : محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى : ١٣٩٣هـ)، الناشر : دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت – لبنان، عام النشر : ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد (ص: ١٠٢) برقم (٢٦٦) ولفظه: "عن بكر بن عبد الله قال: كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، يتبادحون بالبطيخ، فإذا كانت الحقائق كانوا هم الرجال". والأثر صححه الألباني كما في صحيح الأدب المفرد (ص: ١١٧).

(٣) رواه النسائي في السنن الكبرى (١٠/ ٤٠٦) برقم (١١٨٥٥) كتاب المواعظ.

(٤) في البداية والنهاية (٧/ ٧): "وعند ابن إسحاق والمدايني أيضا أن وقعة أجنادين قبل وقعة اليرموك وكانت واقعة أجنادين لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وقتل بها بشر كثير من الصحابة وهزم الروم وقتل أميرهم القيقلان، وكان قد بعث رجلا من نصارى العرب يجس له أمر الصحابة فلما رجع إليه قال: وجدت قوما رهبانا بالليل فرسانا بالنهار والله لو سرق فيهم ابن ملكهم لقطعوه".

(٥) رواه أبو نعيم في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (١/ ٣١١). حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ)، الناشر: السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م، ثم صورتها عدة دور منها، ١ - دار الكتاب العربي – بيروت، ٢- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ٣- دار الكتب العلمية- بيروت (طبعة ١٤٠٩هـ بدون تحقيق).



٢٩ ربيع الآخر

وإنَّ لأهلك عليك حقًّا

إن واجب المسئولية يُحتِّم على كلِّ مَن ولَّاه الله مسئولية صغرت أم كبرت؛ أن يتَّقي الله فيها، فهناك موقف رهيب، ولحظات حرجة، ولقاء مهيب، ويوم عصيب، ذلك يوم السؤال عن كل شيء، والحساب على كل شيء، أمام ملك عادل لا يظلم الناس شيئًا، ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء:٤٧]، وقال أيضًا: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]، وقال أيضًا: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء:٣٦]، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: " إنَّ الله سائلٌ كلَّ راعٍ عمَّا استرعاه؛ حفظ ذلك أم ضيَّع". رواه النسائي[١]، وقوله أيضًا: "كلُّكم راعٍ ومسؤول عن رعيته ". رواه البخاري[٢].

فهذا المصير المحتوم يُحتِّم على كلِّ من ولي شيئًا أن يتَّقي الله فيما ولَّاه وما استرعاه، فالمسؤولية تكليف لا تشريف، وأمانة لا مكانة.

إنَّ الإسلام ليس شعائر فقط بل مشاعر وحسن أخلاق ، وأولى الناس بهذه المشاعر والأخلاق الحسنة أقرب الناس إليك من والد وولد، وحبيب وقريب، فهم أولى الناس برحمتك وعطفك، وضحكاتك ومزاحك الصادق، وأنت بهذا تكون خير الناس كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم: " خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلي". رواه ابن ماجه والترمذي[٣].

فمن حقِّ زوجتك وأهلك أن يفرحوا بك، فبعض الناس أهله لا يرون منه شيئًا، أهله يريدون بعضًا من وقته فلا يجدون، وكلما طلبوا منه شيئًا قال: لا أستطيع؛ أنا مشغول، زوجته معه في عذاب، تتمنَّى زوجته أن ينتكس من أجل أن يعود ليجلس معها، بل ربما تدعو عليه.

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (٨/ ٢٠٨) برقم (٩١٢٩) كتاب عشرة النساء مسألة كل راع وما استرعى. والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (٤/ ١٧٩).

(٢) رواه البخاري في صحيحه (٢/ ٥) برقم (٨٩٣) كتاب الجمعة باب الجمعة في القرى والمدن. ومسلم في صحيحه (٢/ ١٤٥٩) برقم (١٨٢٩) كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العادل، وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة عليهم.

(٣) رواه الترمذي في جامعه (٥/ ٧٠٩) برقم (٣٨٩٥) أبواب المناقب باب في فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم. وابن ماجه في سننه (١/ ٦٣٦) برقم (١٩٧٧) كتاب النكاح باب حسن معاشرة النساء. والحديث صححه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها (١/ ٥٧٥).



وهم أولى الناس بنصحك وإرشادك، وبَذْلِك وعطائك، فقد كان صلى الله عليه وسلم يشتغل بأعظم أمور الأمَّة وأدقِّها ومن ذلك: أمور الجهاد والاقتصاد والإدارة والتوجيه، ومع ذلك يُعطي كلَّ امرأة من نسائه- وكُنَّ تِسْعًا- حقَّها وكلامها، ومزاحها ووقتها، ولكن تجد البعض عنده زوجة واحدة وقد قصَّر في وقتها وفي حقِّها.

ومن حقِّ أهلك عليك أن تأمرهم بالمعروف وتنهاهم عن المنكر، وتحثَّهم على الصلاة وتصطبر عليها، وتُرغِّبهم في الصدقة وتُعينهم على فعلها، وتأخذ بأيديهم إلى الله رب العالمين.

وما أروع أن تجلس مع أولادك وأهلك متأمِّلين الدروس والعِبَر من سيَر الصحابة الكرام، وما أطيبها من صلاة؛ يوم يجتمع البيت بكامله لأداء ركعتين ثم صلاة الوتر ولو مرَّة في الأسبوع؛ فتتنزَّل الرحمات، وينطلق الدعاء بالبركة والخير، والتوفيق والصلاح للراعي والرعية، فيؤمِّن الصغار والكبار، فهل ستخيب هذه الدعوات ؟!

وصدق النبي صلى الله عليه وسلم حين قال : " رحم الله رجلًا قام من الليل فصلَّى، وأيقظ امرأته فصلَّت، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلَّت، ثم أيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء". رواه أحمد وأبو داود(١).

فبهذه الروح الطيبة تجد بيوتًا تغمرها السعادة والطمأنينة، بيوتًا أُسِّست على التقوى والصلاح والخير، بيوتًا تُقرَأ فيها سورة البقرة لتكون حصنًا حصينًا أمام السحرة وشياطين الإنس والجن.

لقد تمثَّل المصطفى صلى الله عليه وسلم صورة المعاشرة مع أهله في أبهى حُللها، فكان- عليه الصلاة والسلام- خير زوج لخير أهل، كيف لا؟ وقد حباه الله تعالى بأكمل الأخلاق وأنبل الصفات، فكان- عليه الصلاة والسلام- لزوجاته الزوج الحبيب، والموجِّه الناصح، والجليس المؤانس.

فكان- عليه الصلاة والسلام- يُمازح نساءه في السراء، ويُواسيهنَّ في الضراء، وكان يسمع شكواهنَّ، ويكفكف دموعهنَّ، لا يؤذيهنَّ بلسانه، ولا يجرح مشاعرهنَّ بعباراته، يتحمَّل منهنَّ الأذى وغلظة القول، وما ضرب بيده امرأة قط، لا يتصيَّد الأخطاء، ولا يتتبَّع العثرات، ولا يُضخِّم الزلَّات، ولا يُديم العتاب، يتحمَّل الهفوة، ويتغاضى عن الكبوة، قليل الملامة، كثير الشكر والعرفان.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (١٢/ ٣٧٢) برقم (٧٤٠٩). وأبو داود في سننه (٢/ ٣٣) برقم (١٣٠٨) أبواب قيام الليل باب قيام الليل. والنسائي في السنن الكبرى (٢/ ١١٥) برقم (١٣٠٢). والحديث قال عنه الألباني: "حسن صحيح" كما في صحيح وضعيف سنن أبي داود (٣/ ٣٠٨).



ينظر إلى أحسن طباع المرأة، ويُظهِر حُبَّه بهذا، ولا غرو في ذلك، فهو القائل: " لا يفرك مؤمن مؤمنة، إن كره منها خلقًا رضي منها آخر". رواه مسلم[١].

وحينما نقترب من بيوت النبوة نرى بعض المشاهد التي دوَّنتها كتب السُّنَّة، وحفظت لنا شيئًا من عِشرة النبيِّ صلى الله عليه وسلم مع أهل بيته، ليتَّضح لنا بعد ذلك عظمة الخُلُق، وبساطة الحياة، ومثالية القوامة.

وأول إطلالة نقترب منها؛ هي مع ذلك البيت الصغير الذي مُلئ إيمانًا وحكمة، وأذهب الله عنه الرجس وطهَّره تطهيرًا، نطلُّ إلى ذلك المنزل المتواضع من كوة فتحتها لنا أمُّنا أمُّ المؤمنين عائشة- رضي الله عنها- حينما تواردت عليها سؤالات الناس: ماذا كان يصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته عندك؟ فأجابت- رضي الله عنها-: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مهنة أهله (يخصف نعله، ويَرقَع ثوبه، ويخدم نفسه) فإذا حضرت الصلاة خرج إلى الصلاة". رواه البخاري[٢].

وقد كان صلى الله عليه وسلم وهو خير الخلق تهجره إحدى زوجاته يومًا كاملًا فلا تكلمه، قال عمر بن الخطاب- رضي الله عنه-: كنَّا معشر قريش نغلب النساء، فلما قدِمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، قال عمر: فصخبتُ على امرأتي، فراجعتْني فأنكرتُ أن تراجعني، فقالتْ: ولِمَ تُنكِرُ أن أراجعك؟! فوالله إنَّ أزواج النبيِّ صلى الله عليه وسلم ليراجعنَه، وإنَّ إحداهنَّ لتهجره اليوم حتَّى الليل، ففزع عمر، وقال: لقد خاب من فعل ذلك منهنَّ، ثم انطلق إلى ابنته حفصة أمِّ المؤمنين ليتثبَّت الخبر منها، قال: يا حفصة؛ أتُغاضب إحداكنَّ رسول الله؟! قالت: نعم، قال: وتهجره حتَّى الليل؟! قالت: نعم؟! قال لها: قد خبتِ وخسرتِ، أفتأمنين أن يغضب الله لغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتهلكي؟! رواه البخاري ومسلم[٣].

وكان صلى الله عليه وسلم من حُسْن أخلاقه أنَّه يشاور نساءه ويستمع إليهنَّ ولا يُسفِّه كلماتهنَّ، فها هو في يوم الحديبية —كما روى البخاري في صحيحه- يُصدُّ صلى الله عليه وسلم عن البيت، ويُصالِح المشركين بالحديبية، فيأمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، بعدما أحرموا بأن ينحروا ويحلقوا، فثقُل هذا الأمر على نفوس أصحابه- رضي الله عنهم-، فما خرجوا من ديارهم إلَّا لأجل

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٢/ ١٠٩١) برقم (١٤٦٩) كتاب الرضاع باب الوصية بالنساء.

(٢) رواه البخاري في صحيحه (١/ ١٣٦) برقم (٦٧٦) كتاب الأذان باب من كان في حاجة أهله فأقيمت الصلاة.

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٣٣) برقم (٢٤٦٨) كتاب المظالم والغصب باب الغرفة والعلية المشرفة وغير المشرفة. ومسلم في صحيحه (٢/ ١١٠٦) برقم (١٤٧٩) كتاب الطلاق باب في الإيلاء واعتزال النساء.



العمرة، فلم يمتثلوا أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فدخل النبي صلى الله عليه وسلم خيمته وقد عُرِف في وجهه الأسى والغضب، فتسأله أمُّ المؤمنين أم سلمة- رضي الله عنها- فيقول: ما لي آمر بالأمر فلا يُتَّبع؟! وأخبرها الخبر، فأشارت عليه- رضي الله عنها- بمشورة طابت لقلب النبي- صلى الله عليه وسلم-، قالت: اخرجْ ولا تُكلِّمْ أحدًا، ثم انحرْ هديك واحلقْ رأسك، فإنَّهم سيفعلون كما تفعل.

فأخذ المصطفى صلى الله عليه وسلم بمشورة زوجته وصنع كما أشارت، فثار الصحابة- رضي الله عنهم- يحلق بعضهم لبعض حتى كاد يقتل بعضهم بعضًا من الغم[1]، وكُفِي الناسُ شرَّ مخالفة أمْر رسول الله- صلى الله عليه وسلم ببركة مشورة امرأة من نسائه صلى الله عليه وسلم.

والخلاصة: أنَّ المسلم ينبغي عليه أن يعرف حقوق أهله عليه، وأن يعلم أنَّه مسئول بين يدي الله تعالى عن هذه الحقوق؛ هل أداها أم فرَّط فيها وضيَّعها؟ فلْيُحسن القيام بهذه الحقوق ومراعاتها حتَّى لا يندم يومًا، ولات ساعة مندم.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٣/ ١٩٣) برقم (٢٧٣١) كتاب الشروط باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط.

٣٠ ربيع الآخر
الدالُّ على الخير كفاعله

من بديع روح الشريعة، وحسن جوهرها؛ أنها جعلت من يدلُّ على عمل من أعمال البرِّ بمثابة الفاعل له، فعن أبي مسعود عقبة بن عمرو- رضي الله عنه- قال: جاء رجلٌ إلى النبيِّ- صلى الله عليه وسلم- فقال: إنِّي أبدِع بي- أي كلَّت راحلتي وتعبت- فاحملني، فقال: ما عندي، فقال رجلٌ: يا رسول الله؛ أنا أدلُّه على من يحمله، فقال رسول الله- صلى اللَّه عليه وسلم-:" من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله". رواه مسلم(١).

وسبب ورود الحديث: أنَّه قدِم رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد انقطع عن الطريق، فسأل النبيَّ- عليه الصلاة والسلام- شيئًا يحمله عليه من دابَّة وغيره، ولم يكن يملك- عليه الصلاة والسلام- شيئًا، فأجابه أنَّه لا يملك شيئًا، فإذ برجل قام وقال: أنا أدلُّك على مَن يستطيع مساعدتك مِن أغنياء المسلمين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من دلَّ على الخير فله مثل أجر مَن يفعل الخير، والخير في الحديث يتضمَّن كلَّ أشكاله، ويدخل فيه هداية الناس، وتعليمهم أمور الدين وأحكامه، وكذلك إرشاد الناس لمن يُعينهم في دنياهم، وغيرها من الأمور.

قال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله-: مَن دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله، والدلالة نوعان:

إمَّا أن يدلَّه بنفسه على الخير فيقول مثلًا: يُسنُّ لك أن تصلِّي ركعتين في الضحى، يُسنُّ لك أن تختم صلاة الليل بالوتر، وما أشبه ذلك، هذه دلالة مباشرة.

أو دلالة غير مباشرة بحيث يدلُّه على من يدلُّه على الخير مثل:

أن يسألك إنسان عن مسألة دينيَّة وأنت لا تعرفها فتقول: اسأل فلانًا من العلماء الموثوقين(٢).

وطرق الدلالة على الخير كثيرة ومتنوِّعةٌ، وبيان بعضها فيما يأتي:

- الدعاء للناس بالهداية والصلاح والمغفرة: وهذه الطريقة وردت عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم عندما قال عبد الله بن مسعود- رضي الله عنه-: "كأنِّي أنظر إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم يحكي

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٣/ ١٥٠٦) برقم (١٨٩٣) كتاب الإمارة باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره، وخلافته في أهله بخير.

(٢) ينظر: فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام (٦/ ٢٩٨). فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام، المؤلف: محمد بن صالح العثيمين، تحقيق وتعليق: صبحي بن محمد رمضان، أم إسراء بنت عرفة بيومي، الناشر: المكتبة الإسلامية للنشر والتوزيع، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.



نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهمَّ اغفر لقومي؛ فإنَّهم لا يعلمون". رواه البخاري(١)، وقد ذُكِر هذا الأسلوب أيضًا في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾(٢).

- القول: وذلك باستخدام الكلام الهادف الذي يعود على الغير بالخير والصلاح، وتكون الدلالة على الخير بالقول أيضًا عن طريق الكتب، والمواعظ، والخطب في المساجد، والنصيحة، ومجالس العلم، وغيرها.
- القدوة الحسنة: إذ إنَّ الناس يقتدون بغيرهم في شتَّى الأمور، لذلك يجب الحرص على الإحسان والعمل الصالح ليكون الإنسان سببًا في اقتداء الناس به، وبذلك يكون قد دلَّ على الخير بالقدوة.
- النشْر: من خلال الحرص على نشْر كلِّ ما يُساهم في الدلالة على الخير، واستخدام جميع الوسائل المتاحة لذلك كالكتب، وكتابة المقالات، أو عن طريق التلفاز والهاتف، وغيرها من الوسائل، واستخدام مواقع الإنترنت المتعدِّدة وإرشاد الناس لطريقة الوصول لكلِّ من يدعو ويدلُّ على الخير.
- المشاريع الخيريَّة: كالحثِّ على المشاريع الخيريَّة التكافليَّة، وتشجيع الناس عليها؛ من كفالة يتيم أو طالب علم وغيره، والتشجيع على الإنفاق والصدقة والبذل في سبيل الله تعالى.
- الإشارة: كالإشارة بتحريك اليد أو استخدام الإيماءات للفت نظر الغير إلى كلِّ ما يدلُّ على الخير، فلا يقتصر الدالُّ على الخير على القول والعمل فقط، وقد ذكر الإمام النووي- رحمه الله-: دلَّ بالقول واللسان، والإشارة والكتابة.
- افتتاح المدارس: وليس المراد المدارس العلميَّة فقط؛ بل المدارس القرآنيَّة والفقهيَّة، وبالتالي تُخرج أجيالًا يحرصون على الدلالة على أعمال الخير والصلاح.

والدلالة على الخير لها فضائل كثيرة، أهمُّها ما يلي:

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدخل ضمن الدلالة على الخير، وهي فضيلة اختصَّها الله تعالى بأمَّة محمد صلى الله عليه وسلم وحده، حيث قال تعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾(٣).

---

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤/ ١٧٥) برقم (٣٤٧٧) كتاب أحاديث الأنبياء باب حديث الغار. ومسلم في صحيحه (٣/ ١٤١٧) برقم (١٧٩٢) كتاب الجهاد والسير باب غزوة أحد.

(٢) الأعراف: ٨٩.

(٣) آل عمران: ١١٠.

- ترسيخ العلاقات الاجتماعيَّة بين أفراد المجتمع المسلم، وتحقيق التكافل والتعاون فيما بينهم، وتحقيق المنفعة للجميع بما فيهم المجتمعات غير الإسلاميَّة، والحرص على درء المفاسد التي تُؤثِّر سلبًا على الحياة الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة وغيرها.
- السير على النهج الواضح الصحيح بدفع الشبهات عن العقيدة وأحكام الدين، وتصحيح المفاهيم التي تدور حوله، إذ إنَّ الدلالة على الخير نوع من التوعية والتعليم، ويدخل فيها تعليم أمور الدين الصحيحة وأحكامه التي هي أساس حياة الفرد المسلم.
- الثواب والأجر العظيم الذي يحظى به الدَّال على الخير، ويكون الأجر بنفس مقدار أجر فاعل الخير، فقد روى جرير بن عبد الله- رضي الله عنه- أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: " من سنَّ في الإسلام سُنَّة حسنة فعُمِل بها بعده؛ كُتِبَ له مثل أجر مَن عمل بها، ولا ينقص مِن أجورهم شيءٌ، ومن سنَّ في الإسلام سُنَّة سيِّئة فعُمِل بها بعده، كُتِبَ عليه مثل وزر مَن عمل بها، ولا ينقص مِن أوزارهم شيءٌ". رواه مسلم(١).

الخلاصة: أنَّ الله سبحانه وتعالى قد أمرنا بالتعاون على البر والتقوى، فقال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾(٢)، والإرشاد إلى الخير وفعْل المعروف هو مِن التعاون على البر والتقوى، كما أن الدلالة على الشرِّ أو الإعانة عليه جالبة للوزر. فما أحوجنا في هذا الزمان الذي انتشر فيه الشرُّ، وانحسر فيه الخير، وقلَّ المعينون عليه؛ أن نُحيي هذه الشعيرة العظيمة، وندعو إليها ونحثَّ عليها؛ لما فيها من الخير العظيم، والنفع العميم، من إقامة أمر الدين، وتقوية المُصلحين، وكسر الشرِّ ومُحاصرة المُفسدين.

الـمـرءُ يُعـــرفُ فِي الأَنَـــامِ بِفِعْلِهِ ... وَخَصَائِلُ المرْءِ الكَرِيم كَأَصْـــلِهِ
اصْــــبِرْ عَلَى حُلْوِ الزَّمَـــانِ وَمُرِّهِ ... وَاعْلَـمْ بِأَنَّ اللهَ بَالِـغُ أَمـــرِهِ
فِي الجَوِّ مَكْتُوْبٌ عَلَى صُحُفِ الهَوَى ... مَنْ يَعْمَلِ المعْرُوْفَ يُجْزَ بِمِثْلِهِ(٣)

---

(١) رواه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٩) برقم (١٠١٧) كتاب العلم باب من سن سنة حسنة أو سنة ومن دعا إلى هدى أو ضلالة.

(٢) المائدة: ٢.

(٣) الأبيات منسوبة للإمام الشافعي، ولم أقف عليها في ديوانه. والله أعلم.


تم بحمد الله